دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	التوازن في ضوء القرآن الكريم
المؤلف الرئيسي:	اليحيصي، عبدالسلام محمد عبدالله
مؤلفين آخرين:	عباس، عباس عوض اللهِ(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2010
موقع:	أم درمان
الصفحات:	1 - 407
رقم MD:	562557
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة دكتوراه
الجامعة:	جامعة أم درمان الاسلامية
الكلية:	كلية أصول الدين
الدولة:	السودان
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	القرآن الكريم ، تفسير القرآن ، الوسطية الإسلامية ، العقيدة الإسلامية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/562557

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الباب الثالث
مقتضيات و ثمرات التوازن في القرآن الكريم

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: مقتضيات التوازن.

الفصل الثاني: ثمرات التوازن.

الفصل الأول
مقتضيات التوازن

ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: للكون إله ورب واحد.
المبحث الثاني: الارتباط الوثيق بين الخلق والأمر.
المبحث الثالث: الدين القيم.
المبحث الرابع: الجزاء الأخروي.

المبحث الأول

للكون إله ورب واحد

إن الناظر في صفحات الكون المختلفة يجد أنها تشهد بأن له إلها وربا أتقن صنعه ودبر شؤونه، وما تنطق به آيات التوازن والتقدير القائمة في الكون كله يعتبر

من أبرز الأدلة والبراهين الدالة على وحدانية الله تعالى وربوبيته التي تقر بها العقول وتستسلم لها الأفهام.

وقد جاءت الآيات القرآنية المتعددة لترسم في الأذهان صورا من الآيات الكونية التي أبدعها الخالق جل وعلا، ثم تُقرر بعد ذلك ما يقتضيه هذا التقدير والإيجاد من لزوم التوحيد ونفي الشرك عنه سبحانه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1]، وقوله جل وعلا: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾[3]، وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[4]، وقوله سبحانه: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

---

(1) سورة البقرة، الآية ٢٢.

(2) سورة البقرة، الآية ١٦٤، ١٦٥.

(3) سورة لقمان، الآية ١٠، ١١.

(4) سورة الأعراف، الآية ٥٤.

يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[2].

فالآيات تحكي بجلاء بيّن أن خلق الموجودات جميعا على اختلاف أنوعها وأجناسها تدل على أن هناك إله واحد، وخالق واحد، ومدبر واحد أوجدها وقدَّر عملها بنظام محكم يستحيل أن يتناهى إلى أيٍّ منها خطأ أو تفاوت. وهي بهذا تقرر قاعدة هامة مسلمة عند جميع العقلاء تتمثل في أنه إذا كان لكل مصنوع صانع، فلابد أن يكون لكل مخلوق خالق. وهذا الكون كله هو صناعة الرب جل وعلا الذي يشهد له بمطلق الخلق والتوحيد.

وقد أورد الرازي قصةً لأبي حنيفة[3] تبين استدلاله بالنظام والتدبير القائم في الوجود على أنه من صنع الله تعالى ومن تدبيره.

وقد استطاع بموجب استدلاله أن يتغلب على خصومه، ويرغمهم على الاستسلام والإذعان، ويصل بهم إلى اليقين الذي لاشك فيه بأن للكون رب وإله يُسيّره ويدبر شؤونه، حيث قال في ذلك:

«كان أبو حنيفة – رحمه الله– سيفاً على الدهرية وكانوا ينتهزون الفرصة ليقتلوه، فبينما هو يوماً في مسجده قاعد إذ هجم عليه جماعة بسيوف مسلولة وهموا بقتله، فقال لهم: أجيبوني عن مسألة ثم افعلوا ما شئتم، فقالوا له: هات. فقال: ما تقولون في رجل يقول لكم إني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال مملوءة من الأثقال قد احتوشها[4] في لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة، وهي من بينها تجري مستوية ليس لها ملاح يجريها ولا متعهد يدفعها. هل يجوز ذلك في العقل؟ قالوا: لا. هذا شيء لا يقبله العقل. فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله! إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير متعهد ولا مجري، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها

---

(1) سورة النمل، الآية ٦٠، ٦١.

(2) سورة النمل، الآية ٦٣.

(3) هو النعمان بن ثابت بن زوطا الإمام أبو حنيفة، فقيه العراق، مولى بني تيم الله بن ثعلبة، رأى أنسا، وسمع عطاء ونافعا وعكرمة، وعنه: أبو يوسف، ومحمد، وأبو نعيم، والمقرئ، عاش سبعين عاما، مات في رجب ١٥٠هـ. أنظر: الذهبي: الكاشف. مرجع سابق، (ج٢، ص٣٢٢).

(4) يقال: احتوش القوم على فلان: جعلوه وسطهم. ابن منظور: لسان العرب. مرجع سابق، (ج٦، ص٢٩١).

وتغير أعمالها وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ؟ فبكوا جميعاً وقالوا: صدقت. وأغمدوا سيوفهم وتابوا»[1].

إن الاستدلال بالخلق على وجود الخالق وألوهيته وربوبيته مسألة بدهية لا تحتاج إلى كثير من العلم والفهم، فهي مما لا يُجهل حتى عند عامة الناس. فهاهم الأعراب على أميتهم وقلة ثقافتهم لا يجهلون هذا الأمر، فقد أجاب أحدهم عندما سُئل:

«بم عرفت ربك ؟ فقال: البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام تدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدل على اللطيف الخبير!»[2].

وكما أن الاستدلال بهذه القاعدة يثبت ألوهية الله وربوبيته لكل شيء ويرد على الملحدين الذين ينكرون أن للكون إله ورب مُوجد، ففي قوله تعالى:﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[3]، تقرير لقاعدة أخرى هامة، وهي أن العدم لا يخلق شيئا.

قال ابن كثير في تأويل هذه الآية: «أي أَوُجِدُوا من غير مُوجِد؟!»[4].

فهذا استفهام استنكاري يقتضي نفي ذلك واستبعاده. فلا يمكن أن يوجد شيء من غير مُوجِد له، أي من العدم؛ لأن العدم أساسا هو لاشيء. فكيف له أن يوجد شيئا ويخلقه؟!.

وهذه القاعد الهامة التي أشارت إليها الآية القرآنية السابقة فيها رد مفحم على من ادعى بأن الكون ظهر صدفة، وأنه لا وجود لإله أوجده ولا رب يدبر شؤونه. فهي تضع من يعتقد هذا الأمر موضع إنكار وجود نفسه قبل غيره، ثم تُلزمه بإنكار كل شيء حوله، بل وإنكار وجود الكون كله؛ لأن الصدفة هي العدم، والعدم لا يخلق شيئا. فكيف يبقى للصدفة مكانا في عقول أربابها بعد هذا.

---

(1) الرازي: التفسير الكبير. مرجع سابق، (ج٢، ص٩١).

(2) حسن العطار: حاشية العطار على جمع الجوامع. دار الكتب العلمية، لبنان- بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، (ج٢، ص٤٤٤، ٤٤٥).

(3) سورة الطور، الآية ٣٥.

(4) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج٤، ص٢٤٥).

فالصدفة يستحيل أن تُوجِد ترتيبا وانتظاما على مستوى مصنوع واحد من أيسر مصنوعات البشر. فكيف لها أن تُنظم كونا، وترتب خلقا لا يُحصى؟! إن هذا أمر لا يقبله عقل!.

فلو فُرض أن صندوقا به مائة قطعة معدنية متساوية، قد كتب على كل واحدة منها رقما واحدا من الرقم واحد إلى الرقم مائة. هل يمكن لأحد أن يدخل يده إلى داخل الصندوق بعد رجِّه، ثم يقوم بإخراج القطع مرتبة واحدة بعد الأخرى مبتدءا بالرقم واحد حتى يصل إلى المائة من دون خطأ في السحب؟!.

إن فرصة سحب الرقم واحد من القطع المعدنية المائة هي بنسبة١%، وأما تكرار سحب الرقم واحد مرتين فقط على التوالي، فيعني ذلك مضاعفة المائة، أي بنسبة واحد إلى عشرة آلاف. فكيف بترتيبها جميعا؟!.

إن قوانين التوازن والتقدير التي تضبط سير الكون لا يمكن أن يكون بينها وبين الصدفة أي تلاؤم أو حتى أدنى تقارب، بل إن القائلين بالصدفة في خلق الكون لم يجدوا للصدفة التي يعتنقونها أي خطأ ولو كان يسيراً في أي جانب من جوانبه. فهل أصابت الصدفة وحدها كل هذا النظام والإتقان دون أن تسهو عن خطأ ولو كان في غاية البساطة؟!.

ثم هل يمكن للصدفة أن تبقى هي المُنَظّمة لشؤون الكون، والمُلبية لكل الاحتياجات والمتطلبات في كل لحظة من اللحظات بالقدر المطلوب لكل مخلوق في الوجود على الدوام من دون خلل أو قصور؟!.

إن الصدفة عدمٌ. وإن العدم لا يخلق شيئا. وما من شك أنه ليس هناك غير العدم في هذا الوجود إلا الخالق أو المخلوق. والخالق هو الإله والرب لكل شيء.

وأما من يجعل من الطبيعة إلهاً من دون الله تعالى، ويجعل لها الأمر من قبل ومن بعد، فإن هؤلاء لم يزيدوا على عُبَّاد الأوثان إلا أن جمعوا كل الأوثان في وثن واحد، ثم أسموه الطبيعة.

ومن المعلوم الذي لا شك فيه أن هذه الطبيعة لا تعدوا أن تكون جمادا.

فهي لا تملك تدبيرا، ولا حكمة، ولا علما، ولا قدرة، ولا خبرة، ولا تملك سمعا ولا بصرا، ولا تملك نفعا ولا ضرا، ولا حياة ولا موتا.... فكيف وهبت كل ذلك للمخلوقات وهي

فاقدة له؟ أليس فاقد الشيء لا يعطيه؟! وهل من المعقول أن تكون المخلوقات أكمل من خالقها؟! فأي ضلال بعد هذا؟!.

إن إلوهية الله وربوبيته للكون يقتضيها تقدير الكون وتوازنه؛ لأنه لا يهب التقدير في كل جزئية في الوجود إلا المقدر والقدير. ولا يهب الحكمة التي تضمنها الخلق إلا الحكيم. ولا يهب التدبير الذي عليه سير كل شيء إلا المدبر والخبير والعليم الذي يعلم عداد كل شيء ومواضعه، وما يصلحه، وما يفسده. ولا يهب السمع والبصر إلا السميع والبصير. ولا يضر ولا ينفع إلا الضار والنافع. ولا يخلق الموت والحياة إلا المحيي والمميت...، وهكذا يتبين أن كل شيء في الوجود يشهد بربوبية الله وألوهيته. فكيف يمكن للطبيعة أن تفعل كل ذلك وهي فاقدة لكل ذلك؟!.

وأما من يجعل لله تعالى شريكا في الخلق، فإن التوازن والتقدير المتناهي في خلق كل شيء يمنع ذلك، ويأبى أن يصدر ذلك عن غير إله ورب واحد، إذ لو كان ذلك كذلك لاستحال أن يقوم نظام في الكون كله، ولما وجد على إثر ذلك أي مخلوق بسبب ما سيلحق السماوات والأرض من فساد كبير يودي بهما إلى الأبد نتيجة لتعدد الآلهة. وقد صرح القرآن الكريم بهذا الأمر في قوله سبحانه: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

قال ابن عطية: «بين تعالى أمر التمانع بقوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾، وذلك بأنه كان يبغي بعضهم على بعض ويذهب بما خلق. واقتضاب القول في هذا: أن الإلهين لو فرضا فوقع بينهما الاختلاف في تحريك جرم وتسكينه، فمحال أن تتم الإرادتان ومحال أن لا تتم جميعا. وإذا تمت الواحدة كان صاحب الأخرى عاجزا وهذا ليس بإله،... وذلك أن كل جزء يخرج من العدم إلى الوجود فمحال أن يتعلق به قدرتان. فإذا كانت قدرة أحدهما موجدة بقي الآخر فضلا لا معنى له في ذلك الجزء. ثم يتمادى النظر هكذا جزءا جزءا»[2].

---

(1) سورة الأنبياء، الآية ٢٢.

(2) ابن عطية: المحرر الوجيز. مرجع سابق، (ج٤، ص٧٨).

بل عند التأمل في الآية يتبين أن الله تعالى«...لم يقل أرباب، بل قال: آلهة. والإله: هو المعبود المألوه. وهذا يدل على أنه من الممتنع المستحيل عقلا أن يشرع الله عبادة غيره أبدا. وأنه لو كان معه معبود سواه لفسدت السماوات والأرض. فَقُبح عبادة غيره قد استقر في الفطر والعقول...، بل العقل يدل على أنه أقبح القبيح على الإطلاق، وأنه من المحال أن يشرعه الله قط. فصلاح العالم في أن يكون الله وحده هو المعبود. وفساده وهلاكه في أن يعبد معه غيره. ومحال أن يشرع لعباده ما فيه فساد العالم وهلاكه، بل هو المنزه عن ذلك»[1]

فهذا برهان عقلي ظاهر على وجوب وحدانية الله -جل وعلا- ونفي الآلهة والشركاء عن ملكوته، وقد جاءت آية أخرى تؤكد على هذه القاعدة التي بموجبها يفرد الله تعالى نفسه بالإلوهية والربوبية لكل شيء، واستحالة أن يكون معه شريك في أي من ذلك، وهي قوله سبحانه: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾[2].

قال ابن كثير: «أي لو قدر تعدد الآلهة لا نفرد كل منهم بما خلق، فما كان ينتظم الوجود. والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[3]، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض. والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع وهو أنه لو فرض صانعان فصاعدا فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين والواجب لا يكون عاجزا. ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد. وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد

---

(1) محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة. دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د - ت)، (ج٢، ص١١).

(2) سورة المؤمنون، الآية ٩١.

(3) سورة الملك، الآية ٣.

فيكون محالا. فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكنا لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهورا»[1].

إن الاستقرار والنظام الحاصل في الكون يمتنع أن يكون قد اشترك في تصميمه آلهة متعددة، ولذلك، «فإن عدم النزاع دليل على عدم المنازِع»[2]، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه القاعدة في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾[3].

وبهذا يكون قد تبين استحالة أن يكون لله تعالى في جميع خلقه شريك، وأن ما يقتضيه العقل هو إفراده سبحانه بالوحدانية التي لا تقبل له شريكا ولا ندا في ملكه.

بل إن بناء الكون كله يشهد أنه من صنع إله واحد فقط. أليس ما يجري عليه الكون من ترابط مع بعضه البعض من أدنى شيء فيه إلى أكبر شيء يدل على أن صانعه واحد؟ بلى.

إن جميع الأحياء في الأرض لا تستغني عن الغذاء، ومصدر الغذاء هو النبات، والنبات لا يمكن أن يخرج الغذاء إلا إذا أخذ الضوء والطاقة من الشمس، والشمس لا يمكن أن توصل الضوء والطاقة إلا إذا ظلت المجموعة الشمسية محافظة على مواقعها، والمجموعة الشمسية لا يمكن أن تبقى محافظة على مواقعها إلا إذا بقيت المجرة التي تتبعها محافظة على مواقعها كذلك...، وهكذا يستمر الترابط والبناء الواحد. ولذلك لو حدث خلل في سير المجرة – مثلا– لتأثرت بذلك المجموعة الشمسية ولاختل نظامها، ولابتعدت الشمس على إثر ذلك عن الأرض، وإذا حدث ذلك لم يصل إلى الأرض ضوء ولا طاقة من الشمس، وإذا انعدمت

---

(1) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج٣، ص٢٥٥)، وانظر: أبو الفضائل أحمد بن محمد بن المظفر بن المختار الرازي: حجج القرآن. تحقيق: أحمد عمر المحمصاني الأزهري. دار الرائد العربي، لبنان، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، (ج١، ص١٢)، وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي: الإتقان في علوم القرآن. تحقيق: سعيد المندوب، دار الفكر، لبنان، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، (ج٢، ص٣٦٠).

(2) محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي: القوانين الفقهية. (د – ن)، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج١، ص١١).

(3) سورة الإسراء، الآية ٤٢.

الطاقة والضوء فلا يمكن للنبات أن ينمو ويُخرج الغذاء، وإذا انعدم الغذاء استحالت حياة أي كائن حي، ولَمَا كانت هناك حياة بعد ذلك ولا أحياء.

فهذا الترابط بين المخلوقات يدل على أن صانع الوجود كله واحد، وأن إلهه وربه واحد هو الله تبارك وتعالى.

المبحث الثاني

الارتباط الوثيق بين الخلق والأمر

أولا: تلازم الخَلْق والأمر:

من مقتضيات التوازن والتقدير الذي أبدعه الخالق –جل وعلا– أن ربط برباط وثيق بين الخلق والأمر، فقد جمع بينهما في كتابه الكريم في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[1]، «وقد رُوى عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما– أنه صعد إلى المروة، فقرأ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، وقال: ...الخلق: جميع ما خلق، والأمر جميع ما قضى، وليس في كتاب الله تعالى كلمتان تجمعان الملك كله غيرهما»[2].

وأشار السعدي إلى ارتباط الخلق والأمر جميعا بتدبير الله الموزون لهما بقوله: «... فإن خلقه للخلق فيه من التدبير القدري الكوني، وأمره فيه التدبير الشرعي الديني. فكما أن الخلق لا يخرج عن الحكمة فلم يخلق شيئا عبثا، فكذلك لا يأمر ولا ينهى إلا بما هو عدل وحكمة وإحسان»[3].

ولما كان صلاح الكون واستقامته قائم على سداد أمر الله تعالى وصوابه فيه، فقد وبَّخ – سبحانه وتعالى– أهل الشرك الذين أعرضوا عن الحق الذي جاء به الرسول–ﷺ– وفيه صلاحهم وصلاح دنياهم وآخرتهم لعدم موافقته لأهوائهم الزائغة التي لو أُجري تدبير السماوات والأرض وما فيهن على وفقها لفسدن جميعا، بقوله سبحانه: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[4].

قال الطبري في تأويل الآية: «ولو عمل الرب – تعالى ذكره– بما يهوى هؤلاء المشركون وأجرى التدبير على مشيئتهم وإرادتهم وترك الحق الذي هم له كارهون؛

---

(1) سورة الأعراف، الآية ٥٤.

(2) هبة الله بن سلامة بن نصر المقري: الناسخ والمنسوخ. تحقيق: زهير الشاويش، محمد كنعان، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ، (ج١، ص٢٩).

(3) السعدي: تيسير الكريم الرحمن. مرجع سابق، (ج١، ص٥٠٢).

(4) سورة المؤمنون، الآية ٧١.

لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن، وذلك أنهم لا يعرفون عواقب الأمور، والصحيح من التدبير والفاسد. فلو كانت الأمور جارية على مشيئتهم وأهوائهم مع إيثار أكثرهم الباطل على الحق لم تقر السماوات والأرض ومن فيهن من خلق الله؛ لأن ذلك قام بالحق»[1].

وقال أبو السعود في تفسيره: «﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾: استئناف مسوق لبيان أن أهواءهم الزائغة التي ما كرهوا الحق إلا لعدم موافقته إياها مقتضية للطامة، أي لو كان ما كرهوه من الحق الذي من جملته ما جاء به -ﷺ- موافقا لأهوائهم الباطلة، ﴿ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾، وخرجت عن الصلاح والانتظام بالكلية؛ لأن مناط النظام ليس إلا ذلك»[2].

ثانيا: تأثُّر الكون بالاعتقاد الفاسد:

من الترابط الوثيق الذي بينه القرآن الكريم بين الخلق والأمر أن الخلق كله يتأثر بفساد اعتقاد العبد بالله تعالى، ففي قوله سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدّٗا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ ﴾[3]، بيانٌ للتنافر الحاصل بين قول الكفار: أن الرحمن اتخذ ولدا، وبين كافة مخلوقات الله تعالى في الكون التي أخبر الله تعالى عنها أنها لا تحتمل هذا القول العظيم عليه سبحانه، وأنها لهول ذلك كادت أن تزول من أماكنها. فبين سبحانه فساد الاعتقاد بقوله: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾، أي «منكراً أو عظيماً»[4]، وبين أثر عِظَم هذا القول على مخلوقاته بقوله: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدّٗا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴾، وقد روى ابن جرير الطبري عن ابن عباس-

---

(1) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١٨، ص٤٢).

(2) أبو السعود: إرشاد العقل السليم. مرجع سابق، (ج٦، ص١٤٤).

(3) سورة مريم، الآية ٨٨ - ٩١.

(4) الإمام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي الشافعي: تفسير القرآن/ اختصار النكت للماوردي. تحقيق: د.عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، (ج٢، ص٢٩٠).

ﷺ- في تأويله لهذه الآية أنه قال: «إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت أن تزول منه لعظمة الله»[1].

ويزداد هذا الرابط وضوحا بما أورده أبو بكر ابن العربي[2] في بيان تأويل هذه الآية، حيث قال: «قال محمد بن كعب[3]: لقد كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة بقولهم هذا، لقوله تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾[4]، وصدق، فإنه قول عظيم سبق القضاء والقدر، ولولا أن البارئ لا يضعه كفر الكافر، ولا يرفعه إيمان المؤمن، ولا يزيد هذا في ملكه كما لا ينقص ذلك من ملكه لما جرى شيء من هذا على الألسنة. ولكنه القدوس الحكيم الحليم، فلم يبال بعد ذلك بما يقوله المبطلون»[5].

ونظير هذه الآية أيضا هو قوله سبحانه: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[6]، أي:

---

(1) الطبري: جامع البيان، (ج١٦، ص١٣٠).

(2) هو أبو بكر بن العربي محمد بن عبد ا لله ابن محمد الإشبيلي المالكي، ولد في شعبان سنة ثمانية وستين وأربعمائة رحل مع أبيه إلى المشرق، وعاد إلى بلده بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق، أحد من بلغ رتبة الإجتهاد، وأحد من انفرد بالأندلس بعلو الإسناد، صنف التفسير وأحكام القرآن وشرح الموطأ وشرح الترمذي وغير ذلك، كانت وفاته في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. أنظر: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: العبر في خبر من غبر. تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ط٢، ١٩٨٤م، (ج٤، ص١٢٥)، والأدنروي: طبقات المفسرين. مرجع سابق، (ج١، ص١٨٠، ١٨١).

(3) هو محمد بن كعب بن سليم بن أسد أبو حمزة القرظي المدني، ولد سنة أربعين على الصحيح، قال البخاري: إن أباه كان ممن لم ينبت من سبي قريظة، عالم ثقة من الثالثة، وكان قد نزل الكوفة مدة، مات سنة عشرين، وقيل: قبل ذلك. أنظر: ابن حجر العسقلاني: تقريب التهذيب. مرجع سابق، (ج١، ص٥٠٤).

(4) سورة مريم، الآية ٩٠- ٩٣.

(5) أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي: أحكام القرآن. تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، طبعة بدون ترقيم، (د - ت)، (ج٣، ص٢٥٠، ٢٥١).

(6) سورة الشورى، الآية ٥.

«تكاد كل واحدة منها تتفطر فوق التي تليها من قول المشركين اتخذ الله ولدا»[1].

ومما يدل على هذا الارتباط الوثيق بين الخلق والأمر – أيضا – قوله سبحانه: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾[2].

«قال قتادة: وفي مصحف عبد الله بن مسعود – ﷺ – ﴿وإن **كاد** مكرهم لتزول منه الجبال﴾. وكان قتادة يقول عند ذلك: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾[3]، أي لكلامهم ذلك»[4].

فظهر بهذا الارتباط الواضح بين الخلق والأمر، وأن مخلوقات الله تعالى المختلفة تتأثر بفساد اعتقاد العبد وشركه مع الله غيره.

ثالثا: الفساد في الدين يستلزم ظهور الفساد في الأرض:

لقد أقام الله تعالى خلقه بالميزان السوي، وجعل أمْره الذي أمر به عباده قائم على الميزان أيضا. ودخل في النهي عن الطغيان والأمر بإقامة الميزان: الوقوف عند الحدود والمقادير للأشياء كما قدرها الخالق – جل وعلا – من غير تجاوز في ذلك بأي وجه من الوجوه، قال تعالى: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾[5].

قال ابن كثير: «قال ههنا: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾، أي خلق السماوات والأرض بالحق والعدل لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل. ولهذا قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ

---

(1) الواحدي: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. مرجع سابق، (ج٢، ص٩٦٠)، وانظر: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط. تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، وشارك في التحقيق: د.زكريا عبد المجيد النوقي، د.أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، (ج٦، ص٢٠٦)، والنحاس: معاني القرآن الكريم. تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٩هـ، (ج٣، ص٥٤٣).

(2) سورة إبراهيم، الآية ٤٦.

(3) سورة مريم، الآية ٩٠.

(4) عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي: الدر المنثور. دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م، (ج٥، ص٥٣).

(5) سورة الرحمن، الآية ٨، ٩.

﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾، أي لا تبخسوا الوزن، بل زنوا بالحق والقسط ...»[1].

ولما كان هناك الكثير من الناس ممن يتجاوزون أمر الله تعالى، فيخالفون أمره ونهيه، ويستبيحون ما حرمه، ويعيثون في الأرض فسادا بسوء الانتفاع بنعم الله تعالى وآلائه المختلفة والمتعددة التي أنعم بها على العالمين، فلا شك أن ضرر ذلك سيظهر ويعم، ولذلك قال سبحانه:﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾[2].

قال ابن كثير في تأويل الآية: «ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض. وما أضره بعد الإصلاح! فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك، كان أضر ما يكون على العباد، فنهى – تعالى– عن ذلك»[3].

ومن المعلوم أن قوله: «﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ﴾ لفظ عام في دقيق الفساد وجليله، وكذلك الإصلاح عام»[4].

قال أبو حيان[5]: «﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ هذا نهي عن إيقاع الفساد في الأرض وإدخال ماهيته في الوجود. فيتعلق بجميع أنواعه من إيقاع الفساد في الأرض وإدخال ماهيته في الوجود، فيتعلق بجميع أنواعه من إفساد النفوس، والأنساب، والأموال، والعقول، والأديان. ومعنى﴿إِصۡلَٰحِهَا﴾: بعد أنْ أصلح الله خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق ومصالح المكلفين. وما روي عن المفسّرين من تعيين نوع الإفساد والإصلاح ينبغي أن يحمل ذلك على التمثيل؛ إذ ادّعاء تخصيص شيء من ذلك لا دليل عليه. كالظلم بعد العدل، أو الكفر بعد الإيمان، أو المعصية بعد

---

(1) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج٤، ص٢٧١).

(2) سورة الأعراف، الآية ٥٦.

(3) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج٢، ص٢٢٣).

(4) عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج٢، ص٣٦).

(5) هو محمد بن يوسف بن علي بن حيان، أبو حيان الأندلسي الجياني ثم الغرناطي الشافعي، ولد سنة أربع وخمسين وستمائة، عالم الديار المصرية، أخذ عن علماء الأندلس، والعدوة، ومصر، وتلا بالسبع على المليجي، ولي المنصورية، توفي عشي يوم السبت ثامن عشر صفر سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م. أنظر: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله: المعجم المختص بالمحدثين. تحقيق: د. محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطائف، ط١، ١٤٠٨هـ، (ج١، ص٢٦٧، ٢٦٨).

الطاعة، أو بالمعصية فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بعد إصلاحها بالمطر والخصب، أو يقتل المؤمن بعد بقائه أو بتكذيب الرّسل بعد الوحي، أو بتغوير الماء المعين، وقطع الشجر والثمر ضراراً، أو يقطع الدنانير والدراهم، أو بتجارة الحكام، أو بالإشراك بالله بعد بعثة الرسل وتقرير الشرائع وإيضاح الملة»[1]. فظهر بهذا تناول الآية لعموم الفساد سواء كان قليلا أو كثيرا، بعد إصلاح قل أو كثر، ولا يخفى ما في هذا من ارتباط وثيق بين ملازمة صلاح الأرض لاستقامة
العباد على ميزان الأمر الإلهي، وبين ملازمة ظهور الفساد فيها كذلك لانحراف العباد عن الميزان نفسه.

قال ابن القيم: «كلما أحدث الناس ظلما وفجورا أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم وأهويتهم ومياههم وأبدانهم وخلقهم وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[3]، بيان واضح في الدلالة على هذا الترابط، فقد ربطت الآية بوضوح جلي بين ظهور الفساد في البر والبحر عموما، وبين أعمال بني آدم الفاسدة التي تسببت في ذلك.

قال الزمخشري: «الْفَسَادُ فِى الْبَرّ وَالْبَحْرِ: نحو الجدب، والقحط، وقلة الريع في الزراعات والربح في التجارات، ووقوع الموتان في الناس والدواب، وكثر الحرق والغرق، وإخفاق الصيادين والغاصة، ومحق البركات من كل شيء، وقلة المنافع في الجملة، وكثرة المضارّ...

﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾، بسبب معاصيهم وذنوبهم، كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم

---

(1) أبو حيان: تفسير البحر المحيط. مرجع سايق، (ج٤، ص٣١٣).

(2) محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله: زاد المعاد في هدي خير العباد. تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة- مكتبة المنار الإسلامية، بيروت – الكويت، ط١٤، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، (ج٤، ص٣٦٣).

(3) سورة الروم، الآية ٤١.

مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾[1] »[2].

ولعل ما طال البر والبحر من فساد كبير في زماننا الحاضر بسبب ما أحدثه الإنسان فيهما من تلوث كبير بالنفايات والمخلفات الصناعية أو بسوء الاستهلاك للموارد والثروات الطبيعية التي تجاوز الإنسان في ذلك حد التوازن والاعتدال إلى الإسراف والإفراط، فأخل بالتوازن على وجه الأرض وهدد البيئة والأحياء فيها، يفسر بعضا من الفساد الظاهر في البر والبحر الذي ذكرته الآية آنفا.

«يقول خبراء الملاحة: إن النفايات الصناعية والمشعة، وآثار ارتفاع درجات الحرارة فوق سطح الأرض تهدد بتدمير الحياة البحرية، وتستنزف ببطء موارد المحيطات»[3].

وقد أظهرت بيانات أصدرتها الجمعية الحيوانية في لندن أن العالم فَقَد منذ السبعينات في القرن الماضي بسبب التلوث، وانتشار المزارع الحيوانية، والتوسع الحضري، والإفراط في صيد الحيوانات والأسماك ما يقرب من ثلث الحياة البرية. حيث انخفضت عدد الأنواع التي تعيش على سطح الأرض بنسبة ٢٥%. ومن أشد الأنواع تضررا الأنواع البحرية، فقد انخفضت أعدادها بنسبة ٢٨% خلال ١٠ أعوام فقط من عام (١٩٩٥م– ٢٠٠٥م). والتي تعيش في المياه الحلوة بنسبة ٢٩%. وانخفض عدد طيور المحيطات بنسبة٣٠% منذ منتصف التسعينات. بينما انخفض عدد الطيور المستقرة فوق اليابسة بنسبة ٢٥%. وهذا التدهور في التنوع الحيوي يعني بوضوح ضعف القدرة على اكتشاف الأدوية الجديدة، وازدياد خطر الكوارث الطبيعية، واشتداد تأثير الاحتباس الحراري[4].

ولم يقتصر الفساد الذي أحدثه الإنسان من تلوث وضرر على البر والبحر فحسب، بل تعداه إلى الجو، ووصل إلى طبقة الأوزون التي «تعمل عمل المرشح في

---

(1) سورة الشورى، الآية ٣٠.

(2) الزمخشري: الكشاف. (ج٣، ص٤٨٨)، وانظر: ابن عطية: المحرر الوجيز. (ج٤، ص٣٤٠)، والشوكاني: فتح القدير. مراجع سابقة، (ج٤، ص٢٢٨).

(3) محمد نجاح شبيب: الشرائع والأخلاق بين الحضارة والانحطاط. دار الفكر، دمشق، ١٩٩٦م، (ص٢٠٦).

(4) أنظر: مخاطر تضاؤل التنوع الحيوي على الأرض. مجلة طبيب الأسرة، العدد ٣، إصدار المركز القومي لأمراض وجراحة الكلى، الخرطوم، (د – ت)، (ص٥٧).

امتصاص الأشعة فوق البنفسجية، وهي أشعة قاتلة للحياة تطلقها الشمس مع أشعتها إلى الأرض...- فقد- أحدث التلوث في طبقة الأوزون ثقبين، أحدهما يقع فوق القطب الشمالي، والثاني أكبر ويقع فوق القطب الجنوبي، وتقدر مساحته بثلاث أضعاف مساحة الولايات المتحدة الأمريكية، ويغطي على الأرض مساحة تقدر ب٢٣,٥ مليون كيلو متر مربع، تشمل جزءا من أمريكا الجنوبية، ويقدر ارتفاعه بين١٣ و١٧ كم، وهو في تزايد مستمر»[١].

فهذه الأضرار التي طالت بر الأرض وبحرها وجوها، هي بما كسبت أيدي الناس، فهم لم يراعوا حساسية التوازن الدقيق القائم في هذه الحياة، ولم يضعوا في حسبانهم حين صنعوا الآلات والمصانع ما ستحدثه من إخلال بالموازين القائمة في الأرض، وما سيكون لها من تأثير سلبي على الحياة البيئية عموما، فُيحسنوا التقدير لذلك كله.

وقد أورد ابن القيم كلاما نفيسا في هذا الشأن فقال: «اعلم أن الله سبحانه أتقن كل شيء صنعه، وأحسن كل شيء خلقه، فهو عند مبدأ خلقه بريء من الآفات والعلل، تام المنفعة لما هيئ وخلق له، وإنما تعرض له الآفات بعد ذلك بأمور أخر: من مجاورة، أو امتزاج واختلاط، أو أسباب أخر تقتضي فساده. فلو ترك على خلقته الأصلية من غير تعلق أسباب الفساد به لم يفسد. ومن له معرفة بأحوال العالم ومبدئه يعرف أن جميع الفساد في جوه ونباته وحيوانه وأحوال أهله حادث بعد خلقه بأسباب اقتضت حدوثه. ولم تزل أعمال بنى آدم ومخالفتهم للرسل تحدث لهم من الفساد العام والخاص ما يجلب عليهم من الآلام والأمراض والأسقام والطواعين والقحوط والجدوب وسلب بركات الأرض وثمارها ونباتها وسلب منافعها أو نقصانها أمورا متتابعة يتلو بعضها بعضا. فإن لم يتسع علمك لهذا فاكتف بقوله تعالى:﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾[٢]، ونزِّل هذه الآية على أحوال العالم وطابق بين الواقع وبينها...»[٣].

---

(١) المرجع نفسه. (ص١٩٦).

(٢) سورة الروم، الآية ٤١.

(٣) أبو عبد الله الزرعي: زاد المعاد. مرجع سابق، (ج٤/ص٣٦٢، ٣٦٣).

وتأمل فيما ورد في السنة الشريفة من ربط بين الأمر والخلق، فعن عبد اللَّهِ بن عُمَرَ- رضي الله عنهما- قال: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رسول اللَّهِ -ﷺ- فقال: "... لم تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ في قَوْمٍ قَطُّ حتى يُعْلِنُوا بها إلا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ التي لم تَكُنْ مَضَتْ في أَسْلافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا..." [1]، وجاء عند عبد الله بن عَبَّاسٍ- رضي الله عنهما- بلفظ: "... وَلاَ فَشَا الزنى في قَوْمٍ قَطُّ إلا كَثُرَ فِيهِمُ الْمَوْتُ..."[2].

وأسوأ من الزنا فاحشة اللواط التي كانت في قوم لوط، قال سبحانه: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[3]، وهذه الفواحش كلها محرمة في الشرع الحنيف[4]، وقد بين النبي -ﷺ- أن ظهورها في قوم أو في مجتمع حتى يُعْلَن عنها بحيث تصبح ممارستهم لها من الأمور الغير منكرة عندهم، فإن ذلك يوجب فسادا يدمر خَلْق الإنسان وبناءه السوي الصالح، ويجعله عرضة للطواعين والأوجاع التي لم يسبق أن حدثت في أي أمة سبقت من الأمم. وهذه المعادلة دقيقة في الربط بين الأمر الديني والخلق الكوني، ولم يعد في هذا الأمر مجالا للشك؛ فما أصاب المجتمعات الغربية عموما والمجتمعات الغير منضبطة بتحريم هذه الفواحش في زماننا هذا لا يخفى على أحد، فقد انتشر فيهم مرض الإيدز[5] القاتل الذي أصبح وصمة عار في

---

(1) أخرجه مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي: موطأ الإمام مالك. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، مصر، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج٢، ص٤٦٠، حديث رقم: ٩٨١)، وابن ماجه في سننه. مرجع سابق، (ج٢، ص١٣٣٢، حديث رقم: ٤٠١٩)، وسليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني: مسند الشاميين. تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، (ج٢، ص٣٩١، حديث رقم: ١٥٥٨)، وأخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين بنحوه. مرجع سابق، (ج٢، ص١٣٦، حديث رقم: ٢٥٧٧)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(2) أخرجه مالك في الموطأ. مرجع سابق، (ج٢، ص٤٦٠، حديث رقم: ٩٨١).

(3) سورة الأعراف، الآية ٨٠، ٨١.

(4) قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [سورة الأعراف، الآية ٣٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[سورة الإسراء، الآية٣٢].

(5) هو عوز نقص المناعة المكتسبة الذي يسببه فيروس نقص المناعة البشرية (HIV) الذي يدمر نظام المناعة، مما يجعل المريض معرضا تماما لجميع أنواع الإصابات والعدوى وبعض أشكال السرطان. أنظر: بروفيسور= =

جبين المنادين بهذه الممارسات الإباحية، وأصبح مشكلة تهدد الملايين من البشر بالموت المحقق، فقد «أوردت التقارير وجود الإيدز في جميع أقطار الدنيا. ويقدر العاملون في منظمة الصحة العالمية أن عدد المصابين بفيروس نقص المناعة البشرية – الإيدز – قد يصل ... في عشر سنوات إلى ١٠٠ مليون»[١].

إن المتمعن في هذا المرض القاتل يجد أنه صمم خصيصا ليكون عقابا ربانيا للذين ينتهكون هذه المحرمات، فهو لا ينتقل إلى الجسم، كشأن مختلف الأمراض الأخرى، ولكن كما «يؤكد العلماء أن أكبر وسيلة للإصابة بالمرض عدا الحقن بالدم الملوث هو الشذوذ الجنسي أو اللواط، إذا أردنا استخدام الاسم الحقيقي له»[٢].

وهكذا يتبين أن ما شرعه الله وأمر به يتناسب تماما مع تقدير الخلق القائم وصلاحه بصورة حساسة جدا، بحيث تظهر آثار التجاوز والانحراف بفساد جلي في جوانب متعددة من الخلق نتيجة لذلك، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الترابط الوثيق بين الخلق والأمر، والذي بدوره يعتبر من مقتضيات التوازن والتقدير الذي أبدعه الخالق جل وعلا.

المبحث الثالث

مالك بدري: نكبة الإيدز نتاج طبيعي لثورة الحداثة الجنسية. ترجمة: محمد عثمان أحمد إسماعيل، دار جامعة أفريقيا للطباعة، السودان، ط١، رجب ١٤٢٨هـ/ يوليو ٢٠٠٧م، (ص١).

(١) المرجع نفسه. (ص٢٥).

(٢) المرجع نفسه. (ص٣٧).

الدين القيم

أولا: توافق الدين القيم مع الفطرة:

ما من شك أن من مقتضيات التوازن والتقدير الذي عليه الخلق كله أن يكون هناك دين قيّم يتناسب مع الفطرة التي فطر الله تعالى عباده عليها، وهذا هو ما قرره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم الذي هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره»[2].

فالفطرة التي خلقها الله تعالى في عباده لا تتناقض مع ما شرعه، بل تتوافق معه وتتقبله، وقد بين الزمخشري تأويلها قائلا: «والفطرة: الخلقة. ألا ترى إلى قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾، والمعنى: أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام غير نائين عنه ولا منكرين له، لكونه مجاوباً للعقل مساوقاً للنظر الصحيح، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر، ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن»[3].

وقد جاء في السنة أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قال: قال رسول اللَّهِ -ﷺ-: "ما من مَوْلُودٍ إلا يُولَدُ على الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أو يُنَصِّرَانِهِ أو يُمَجِّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هل تُحِسُّونَ فيها من جَدْعَاءَ؟ ثُمَّ يقول:﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾"[4].

---

(1) سورة الروم، الآية ٣٠.

(2)ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج٣، ص٤٣٣).

(3) الزمخشري: الكشاف. مرجع سابق، (ج٣، ص٤٨٤، ٤٨٥).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج٤، ص١٧٩٢، حديث رقم: ٤٤٩٧).

فالمقصود أن المولود يولد على فطرة الإسلام سليما من الاعتقادات الباطلة، متقبلا للعقائد الصحيحة، بحيث لو تُرك من وقت ولادته لينشأ على فطرته وأصل خلقته التي خلقه الله عليها من دون أن يتدخل أحد في توجيهه بما يُغير من أصل فطرته؛ لأدَّاه نظره إلى الدين الحق وهو التوحيد. وقد ضرب رسول الله -ﷺ- مثل ذلك، فقال: كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟. ويؤيد هذا المعنى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قال ذَاتَ يَوْمٍ في خُطْبَتِهِ: "ألا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ ما جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يومى هذا ...، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ. وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عن دِينِهِمْ ..." [1].

«أي استخفوهم، فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه وجالوا معهم فى الباطل»[2].

فالدين القيم إذاً هو الذي لا يتعارض مع ما فطر الله الخلق عليه، بل تستقيم معه الفطر كافة فتتجه إلى خالقها دون سواه. ومما يبين هذا أن العاقل إذا رجع إلى نفسه وعقله أدنى رجوع عرف افتقاره إلى خالقه- تعالى- في تكوينه وبقائه وتقلبه، فهو في كافة أحواله لا يستغني عنه طرفة عين، بل إن الناس جميعا – مسلمهم وكافرهم- إذا أصابتهم الشدائد، وأحاطت بهم الأهوال، ونزلت بهم الكروب: ارتفعت أصواتهم مستنجدة بالله وحده، وأقبلت أفئدتهم مستغيثة به دون سواه، وانجلى عن تلك الأفئدة أغلفتها التي حالت بينها وبين معرفته، فَضَلَّ عنها في تلك اللحظات كل من كانت تدعوا من قبل ممن تزعم أنهم آلهة، واتجهت لتدعوا الله وحده ليكشف ما بها من سوء، وقد بين الله هذا الأمر في قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ [3]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾[4].

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عِيَاضِ بن حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيّ. مرجع سابق، (ج٤، ص٢١٩٧، حديث رقم: ٢٨٦٥).

(2) النووي: شرح صحيح مسلم. مرجع سابق، (ج١٧، ص١٩٧).

(3) سورة يونس، الآية ١٢.

(4) سورة الإسراء، الآية ٦٧.

قال القرطبي: «الضر: لفظ يعم خوف الغرق، والإمساك عن الجري، وأهوال حالات اضطرابه وتموجه، ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾، ضل: معناه تلف وفقد، وهي عبارة تحقير لمن يُدعى إلها من دون الله. والمعنى في هذه الآية: أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة وأن لها فضلا، وكل واحد منهم بالفطرة يعلم علما لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لا فعل لها في الشدائد العظام، فوقفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحيل»[1].

إن فزع الفطرة ويقضتها في قلب الكافر والغافل، وانقشاع الحجب الكثيفة عنها عند نزول الشدائد، ليجعلها تتجه في ندائها إلى الله وحده دون غيره، وتيقنها تمام اليقين أنه الذي يملك كشف الضر ورفع البلاء، يمثل دليلا واضحا على توافق الفطرة مع أصل الدين الحق الذي يدعوا إلى التوحيد وينهى عن الشرك، وهذا هو ما شرعه الإسلام وأمر به.

ثانيا: الدين القيم واحد للأولين والآخرين:

مما لاشك فيه أن الدين القيم الذي فرضه الله تعالى على جميع العباد الأولين منهم والآخرين واحد في أصله، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[2].

وقد ورد في القرآن الكريم آيات متعددة تبين اتفاق أنبياء الله تعالى- عليهم السلام- على أن الإسلام هو الدين المأمور به في زمانهم، وأنه الدين الذي كانوا يدينون به، وسيستعرض الباحث بعض الآيات التي تبين ذلك، وذلك على النحو الآتي:

١. قال تعالى عن دين نوح-عليه السلام-: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾[3].

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. (ج١٠، ص٢٩١)، وانظر: البيضاوي: تفسير البيضاوي. (ج٣، ص٤٥٦)، والشوكاني: فتح القدير. مراجع سابقة، (ج٣، ص٢٤٣).

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٢٥.

(٣) سورة يونس، الآية ٧٢.

٢. وقال سبحانه مخبرا عن دين إبراهيم-عليه السلام -: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[١].

٣. أخبر الله تعالى أن ملة إبراهيم -عليه السلام - هي الملة التي يجب اتباعها، وأنها هي التي تواصى بها أبناءه وأحفاده من بعده، قال تعالى:﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾[٢].

٤. قوله- سبحانه- عن قصة نبيه سليمان - عليه السلام- مع الملكة بلقيس ودخولها معه في دين الإسلام الذي كان يدين به: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[٣].

٥. ما أخبر به سبحانه عن قيل نبيه موسى- عليه السلام- لقومه:﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[٤].

٦. إخبار الله عز وجل عموما عن دين أنبياء بني إسرائيل- عليهم السلام- بقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾[٥].

وعلى هذا فالدين القيم هو كل ما أمر الله تعالى به أو نهى عنه، فهو كل لا

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٦٧.

(٢) سورة البقرة، ١٣٠- ١٣٣.

(٣) سورة النمل، الآية ٤٢- ٤٤.

(٤) سورة يونس، الآية ٨٤.

(٥) سورة المائدة، الآية ٤٤.

يتجزأ. ولذلك بين سبحانه أنه أمر أهل الكتاب من اليهود والنصارى بالاستقامة على ما شرعه لهم من الدين من دون ميل أو انحراف عن بعض ما شرع لهم فيه، قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥ ﴾[1].

قال البيضاوي في تفسيره: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ ﴾: أي في كتبهم بما فيها، ﴿ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ لا يشركون به، ﴿ حُنَفَآءَ ﴾: مائلين عن العقائد الزائغة، ﴿ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ ﴾، ولكنهم حرفوا وعصوا، ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ دين الملة القيمة»[2].

ومما يوضح اتفاق شريعة الإسلام في الأمم السابقة مع شريعة الإسلام الخاتمة التي جاء بها محمدا -ﷺ- هو ما أخبر الله تعالى به عن قصة نبيه يوسف - عليه السلام- في حواره مع صاحبي السجن ودعوته لهما إلى دينه، وعرضه للدين القيم الذي يدين به، وبيان ضلالهما وبعدهما عنه، قال الله عن ذلك:

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣٦ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ۝٣٨ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٠ ﴾[3].

قال الطبري: «وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾، يقول: هذا الذي دعوتكما إليه من

---

(1) سورة البينة، الآية ٥.

(2) البيضاوي: أنوار التنزيل.، (ج٥، ص٥١٦)، وانظر: البغوي: معالم التنزيل. (ج٤، ص٥١٤)، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن. مراجع سابقة، (ج٢٠، ص١٤٤).

(3) سورة يوسف، الآية ٣٦ - ٤٠.

البراءة من عبادة ما سوى الله من الأوثان، وأن تخلصا العبادة لله الواحد القهار هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه، والحق الذي لا شك فيه.﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، يقول: ولكن أهل الشرك بالله يجهلون ذلك فلا يعلمون حقيقته»[1].

فتبين بهذا أن الإسلام هو الدين القيم الذي افترضه الله على عباده جميعا، وهو الذي ارتضاه لهم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[2].

قال البيضاوي: «أي لا دين مرضي عند الله سوى الإسلام، وهو التوحيد والتدرع بالشرع الذي جاء به محمد ﷺ»[3]، ولذلك قال تعالى عن كمال دينه ورضاه عنه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[4].

قال النسفي في تأويل ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾: «حال اخترته لكم من بين الأديان وآذنتكم بأنه هو الدين المرضى وحده»[5].

ولذلك فمن ابتغى غيره بديلا فلن يقبل منه، وعمله مردود عليه، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[6].

ثالثا: بيان القرآن الكريم لاستقامة الدين القيم واعتداله:

لما كان الإسلام هو الدين القيم الذي يجب على العباد اعتناقه، فقد بين الله تعالى أنه مبني على الاستقامة والاعتدال، حيث نفى عن كتابه الكريم العوج ووصفه بالقيم، فقال:﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾[7].

قال الشنقيطي في تفسيره: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا﴾، أي لم يجعل في القرآن عوجاً،

---

(1) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١٢، ص٢٢٠).

(2) سورة آل عمران، الآية ١٩.

(3) البيضاوي: أنوار التنزيل. مرجع سابق، (ج٢، ص١٨).

(4) سورة المائدة، الآية ٣.

(5) النسفي: مدارك التنزيل. مرجع سابق، (ج١، ص٢٦٩).

(6) سورة آل عمران، الآية ٨٥.

(7) سورة الكهف، الآية ١، ٢.

أي لا اعوجاج فيه ألبتة. لا من جهة الألفاظ، ولا من جهة المعاني. أخباره كلها صدق، وأحكامه عدل، سالم من جميع العيوب في ألفاظه ومعانيه وأخباره وأحكامه؛ لأن قوله: ﴿عِوَجَا﴾ نكرة في سياق النفي، فهي تعم نفي جميع أنواع العوج...

وقوله: في هذه الآية الكريمة ﴿قَيِّماً﴾، أي مستقيماً لا ميل فيه ولا زيغ»[1].

فنفي العوج يقتضي أن أخباره كلها صدق، وأن أوامره ونواهيه كلها عدل، وقد بين ذلك في آيات متعددة، منها قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾[2]، وأنه لا اختلاف ولا تناقض بين آياته، كما قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[3].

وإثبات الاستقامة يقتضي أن يخبر بأعظم الأخبار وأجلها، كإخباره بأسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله، وكذا الغيوب الماضية والمستقبلية، وما في أوامره ونواهيه من تهذيب للنفوس وتزكية لها.

كما أخبر سبحانه بأن كتابه العزيز يهدي لأقوم الطرق، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[4].

قال القرطبي: «ومعنى ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، أي الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب»[5].

ولذلك أمر الله تعالى نبيه محمدا -ﷺ- أن يعلن ما هو عليه من الدين القيم كما في قوله جل وعلا: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾[6].

---

(1) الشنقيطي: أضواء البيان. مرجع سابق، (ج٣، ص١٩٢).

(2) سورة الأنعام، الآية ١١٥.

(3) سورة النساء، الآية ٨٢.

(4) سورة الإسراء، الآية ٩.

(5) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. (ج١٠، ص٢٢٥)، وانظر: السيوطي: الدر المنثور. (ج٥، ص٢٤٥)، والآلوسي: وروح المعاني. مراجع سابقة، (ج١٥، ص٥١).

(6) سورة الأنعام، الآية ١٦١.

قال السعدي في بيان معنى الدين القيم: بأنه «الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة، والأعمال الصالحة، والأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح، الذي عليه الأنبياء والمرسلون خصوصا إمام الحنفاء ووالد من بعث من بعد موته من الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو الدين الحنيف المائل عن كل دين غير مستقيم من أديان أهل الانحراف، كاليهود، والنصارى، والمشركين»[1].

فتبين بهذا أن من مقتضى تقدير الخلق والتوازن في الكون أن الدين القيم الذي ارتضاه الله تعالى لعباده جميعا هو الإسلام الحنيف؛ لأنه الدين الذي ينسجم مع فطرة العباد جميعا، وتستقيم به حياتهم وأحوالهم، والذي أسلم به لله تعالى خير خلقه من الأنبياء والرسل وأتباعهم في مختلف العصور الغابرة.

([1]) السعدي: تيسير الكريم الرحمن. مرجع سابق، (ج١، ص٢٨٢).

المبحث الرابع
الجزاء الأخروي

أولا: قيام الخَلْق بالعدل يستدعي يوما آخر للجزاء:

لما كان كل شيء في الوجود قائما على الميزان العدل، وكثير من العباد يخرجون من هذه الحياة الدنيا وهم مجاوزون لحد القسط وظالمون لأنفسهم ولغيرهم؛ إذ لم يمتثلوا ما أمرهم الله تعالى به وما نهاهم عنه، فكان منهم الظالم الذي لم يؤخذ منه للمظلوم حقه، وكان منهم المظلوم الذي عجز عن أخذ مظلمته، فهل يُعقل أن الله تعالى يترك الظالم بعد أن حذره من أن يظلم نفسه أو غيره فلا يجازيه على ذلك؟! وهل يُعقل أن الله تعالى يترك المظلوم الذي عجز عن أخذ حقه في الدنيا من دون أن ينصفه ويقتص له ممن ظلمه؟! لو حدث ذلك لما كان لأمر الله تعالى ونهيه فائدة؛ لأن الله سبحانه يكون قد سوى بذلك بين المحسن والمسيء، وبين من أطاعه ومن عصاه، ولم يعد لإقامة الوجود وإرسال الرسل وإنزال الشرع معنى يُذكر.

إن العدل يأبى ذلك، وإتقان الخلق وتسويته يأبى ذلك أيضا، ولذلك قال سبحانه: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره:﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ ﴾للعدل والحق لا لما حسب هؤلاء الجاهلون بالله من أنه يجعل من اجترح السيئات فعصاه وخالف أمره كالذين آمنوا وعملوا الصالحات في المحيا والممات إذ كان ذلك من فعل غير أهل العدل والإنصاف، يقول جل ثناؤه: فلم يخلق الله السماوات والأرض للظلم والجور، ولكنا خلقناهما للحق والعدل، ومن الحق أن نخالف بين حكم المسيء والمحسن في العاجل والآجل. وقوله:﴿وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ ﴾، يقول تعالى: وليثيب الله كل عامل بما عمل من عمل خلق السماوات والأرض، المحسن بالإحسان والمسيء بما هو أهله، لا لنبخس المحسن ثواب إحسانه ونحمل عليه جرم غيره

([1]) سورة الجاثية، الآية ٢٢.

فنعاقبه أو نجعل للمسيء ثواب إحسان غيره فنكرمه، ولكن لنجزي كلا بما كسبت يداه، وهم لا يظلمون جزاء أعمالهم»[1].

ويزداد وضوح هذا الأمر بما ورد في سورة التين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨ ﴾[2]، حيث جاء البيان بوجوب وقوع الجزاء الأخروي من خلال الاستدلال بأن كل شيء في الوجود قائم على الحكمة والإتقان من قِبَل أحكم الحاكمين.

قال الشنقيطي: وأحكم الحاكمين، قيل: أفعل تفضيل من الحكم، أي أعدل الحاكمين. وقيل: من الحكمة، أي في الصنع والإتقان والخلق. فيكون اللفظ مشتركاً ولا يبعد أن يكون من المعنيين معاً، بل هما متلازمان؛ لأن الحكيم لا بد أن يعدل والعادل لا بد أن يكون حكيماً يضع الأمور في مواضعها[3].

«وهذا تقرير لمضمون السورة من إثبات النبوة، والتوحيد، والمعاد، وحكمه بتضمن نصره لرسوله -ﷺ- على من كذبه وجحد ما جاء به بالحجة والقدرة والظهور عليه، وحكمه بين عباده في الدنيا بشرعه وأمره، وحكمه بينهم في الآخرة بثوابه وعقابه. وأن أحكم الحاكمين لا يليق به تعطيل هذه الأحكام بعد ما ظهرت حكمته في خلق الإنسان في أحسن تقويم، ونقله في أطوار التخليق حالا بعد حال إلى أكمل الأحوال. فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؟ وهل ذلك إلا قدح في حكمه وحكمته؟!»[4].

بل إذا كان الله تعالى جعل الكون كله مسخرا للعباد، يصولون فيه ويجولون منتفعين بما أودعه لهم فيه من الخيرات والمنافع، كما قال سبحانه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي

---

(١) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٢٥، ص١٤٩، ١٥٠)

(٢) سورة التين الآية ٧، ٨.

(٣) الشنقيطي: أضواء البيان. بتصرف، مرجع سابق، (ج٩، ص١٠، ١١).

(٤) أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي: التبيان في أقسام القرآن. دار الفكر، طبعة بدون ترقيم، (د - ت)، (ج١/ص٣٥).

﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣ ﴾[1]، فهل من المعقول أن يتركهم بعد ذلك هملاً بلا جزاء، وما خلقهم إلا ليقيموا شرعه؟!.

إن ذلك سيكون لعبا وعبثا، والله – عز وجل– لا يفعل ذلك، فقد نزَّه نفسه– سبحانه– عن ذلك، فقال: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧ ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٩ ﴾[3]، وبين سبحانه أن لو صح ظنهم الخاطئ من عدم وجود يوم آخر للحساب والجزاء لكان ذلك عبثا في خلقهم، وليس الأمر كما يظنون، فيوم الجزاء واقع لا محالة، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦ ﴾[4].

فظهر بهذا أن اعوجاج أكثر العباد عن الحق والعدل يستلزم له يوما آخر للجزاء، حتى يُعطى كل ذي حق حقه، ويُقتص لكل مظلوم ممن ظلمه.

ثانيا: الجزاء من جنس العمل:

لما كان الجزاء في الآخرة أمرا محققا، فقد جعله الله تعالى من جنس فعل العبد في حياته الدنيا جزاءا وفاقا، ولذلك قال عن الحال الذي سيؤول إليه من أعرض عن شرعه: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢ ﴾[5].

قال أبو السعود: «﴿ وَمَن كَانَ ﴾ من المدعوين المذكورين﴿ فِي هَٰذِهِۦٓ ﴾الدنيا التي فعل بهم فيها ما فعل من فنون التكريم والتفضيل﴿ أَعۡمَىٰ ﴾، فاقد البصيرة لا يهتدي إلى رشده ولا يعرف ما أوليناه من نعمة التكرمة والتفضيل، فضلا عن شكرها والقيام

---

(١) سورة الجاثية، الآية ١٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ١٦، ١٧.

(٣) سورة الدخان، الآية ٣٨، ٣٩.

(٤) سورة المؤمنون، الآية ١١٦.

(٥) سورة الإسراء، الآية ٧٢.

بحقوقها، ولا يستعمل ما أودعناه فيه من العقول والقوى فيما خلقن له من العلوم والمعارف الحقة،﴿ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ التي عبر عنها بيوم ندعو ﴿أَعۡمَىٰ ﴾ كذلك، أي لا يهتدي إلى ما ينجيه،ولا يظفر بما يجديه؛ لأن العمى الأول موجب للثاني»[1].

والذي يظهر أن العمى الثاني هو عمى البصر؛ لأن عمى البصيرة حاصل له من قبل، ويؤيد هذا قوله تعالى:﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦ ﴾[2]، فلقد سأل هذا الأعمى عن حشره فاقدا لبصره الذي كان يبصر به في الدنيا، فدل ذلك على أن عماه في الدنيا هو عمى البصيرة، وأن عماه في الآخرة هو عمى البصر مع تلازم عمى البصيرة له في الآخرة، لكونه حاصلا له من قبل.

وعلى كلا المعنيين فقد جعل الله الجزاء من جنس العمل. إذ بيَّن الله له سبب حشره أعمى: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴾، أي جُوزيت بمثل فعلك.

كما تتضمن الآية أيضا مجازاة أخرى، حيث يجازي الله تعالى من نسي آياته في الدنيا وتركها بنسيانٍ وتركٍ في العذاب يوم القيامة مثل ذلك النسيان. وقد أشار الشوكاني إلى هذا الأمر في قوله تعالى: «﴿ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ﴾، أي أعرضت عنها وتركتها ولم تنظر فيها.﴿ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴾، أي مثل ذلك النسيان الذي كنت فعلته في الدنيا تنسى، أي تترك في العمى والعذاب في النار»[3].

ويمكن ملاحظة معنى جزاء الله تعالى لعباده من جنس أعمالهم في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٤٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ

---

(1) أبو السعود: إرشاد العقل السليم. (ج٥، ص١٨٧)، وانظر: الثعالبي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن. (ج٢، ص٣٥٢)، وأبو حيان: تفسير البحر المحيط. (ج٦، ص٦٠)، والشوكاني: فتح القدير. مراجع سابقة، (ج٣، ص٢٤٦).

(2) سورة طه، الآية ١٢٤- ١٢٦.

(3) الشوكاني: فتح القدير. مرجع سابق، (ج٣، ص٣٩٢)، وانظر: عبد الرزاق بن همام الصنعاني: تفسير القرآن. تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤١٠هـ، (ج٣، ص٢١)، والطبري: جامع البيان. (ج١٦، ص٢٣٠)، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن. مرجعان سابقان، (ج١١، ص٢٥٩).

﴿تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾﴾[1]، فقد بينت الآية أن الله تعالى لا يستجيب لدعاء الكفار في النار؛ لأنهم لم يستجيبوا للرسل حينما دعوهم إليه –سبحانه–، فكان جزاؤهم من جنس ما عملوه مع رسله.

ولا يقتصر هذا الجزاء على عقاب العصاة فقط، بل يشمل الثواب للمؤمنين أيضا، فقد نبه القرآن الكريم إلى هذا الأمر بقوله سبحانه: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[2].

قال البغوي في تأويله للآية: «أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة»[3].

وكذلك جاءت الأحاديث الكثيرة – على الجملة– تبين أن كل من قدم من الخير والمعروف شيئا، فإن الله –سبحانه– يجازي فاعله على ذلك من جنس فعله، ومن ذلك ما جاء في الحديث القدسي عن النبي–ﷺ– فيما روى عن الله تعالى: "... يا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا من أَطْعَمْتُهُ، فاستطعموني أُطْعِمْكُمْ. يا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إلا من كَسَوْتُهُ، فاستكسونى أَكْسُكُمْ ..."[4].

وجاء عن عَبْدَ اللَّهِ بن عُمَرَ– رضي الله عنهما – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –ﷺ– قال: "... وَمَنْ كان في حَاجَةِ أَخِيهِ كان الله في حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عن مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ الله عنه كُرْبَةً من كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ الله يوم الْقِيَامَةِ"[5].

وأيضا ما رُوِي عن عبد اللَّهِ بن عَمْرٍو –رضي الله عنهما– يَبْلُغُ بِهِ النبي–ﷺ–: "الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا أَهْلَ الأرض يَرْحَمْكُمْ من في السَّمَاءِ"[6].

فهذه الأحاديث بينت أن الله تعالى يجازي العبد على أفعال الخير والإحسان

---

(1) سورة غافر، الآية ٤٩، ٥٠.

(2) سورة الرحمن، الآية ٦٠.

(3) تفسير البغوي ج٤، ص٢٧٦

(4) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر. مرجع سابق، (ج٤، ص١٩٩٤، حديث رقم: ٢٥٧٧).

(5) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج٢، ص٨٦٢، حديث رقم: ٢٣١٠).

(6) أخرجه أبو داود في سننه: (ج٤، ص٢٨٥، حديث رقم: ٤٩٤١)، وأورده الحاكم في المستدرك على الصحيحين: (ج٤، ص٢٨٥، حديث رقم: ٤٩٤١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة المختصرة، مراجع سابقة، (ج٢، ص٥٩٤، حديث رقم: ٩٢٥).

التي فعلها مع عباده بجزاء مماثل من جنس تلك الأعمال.

ثالثا: جزاء عادل مستوف لجميع شرائطه:

من كمال عدل الله تعالى يوم القيامة أنه لا يظلم أحدا من عباده، بل يقيم لهم محكمته الإلهية المستوفية لجميع شرائط العدل، والذي بموجبها يحصل العبد على ما يستحقه من جزاء عادل على ما اكتسبه في حياته الدنيا من خير أو شر،وسيستعرض الباحث بعض ما بينه القرآن الكريم من ذلك على النحو الآتي:

١. أن جميع أعمال العباد قد أحصيت ووثّقت كبيرها وصغيرها في صحف الأعمال من دون زيادة ولا نقصان، وأن الجزاء سيكون على كل شيء ورد فيها من غير أدنى ظلم، قال سبحانه عن ذلك: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[٢].

٢. أن الله تعالى جعل من تمام عدله أن يُنطق الجوارح لتشهد على ما اقترفت في حال إنكار العبد لما ورد في سجل أعماله من سيئات؛ ليكون ذلك أبلغ في الحجة عليه، مع أنه- سبحانه- يعلم بجميع أحوال عباده ولا يخفى عليه منهم خافية[٣]، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾[٤]، وقال سبحانه: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[٥]، وقال جل وعلا: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ

---

(١) سورة الكهف، الآية ٤٩.

(٢) سورة غافر، الآية ١٧.

(٣) قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة المجادلة، الآية ٧].

(٤) سورة النور، الآية ٢٤، ٢٥.

(٥) سورة يس، الآية ٦٥.

خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

٣. أن الله تعالى جعل من تمام عدله أن يقيم موازين دقيقة لوزن الأعمال، ليتبين للعباد مقادير أعمالهم، وتكون معلومة لهم، فَيُظهر لهم عدله في العقاب، وفضله في العفو أو تضعيف الثواب، قال تبارك وتعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[3]، وقال سبحانه مبينا دقة الوزن والجزاء: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾[4].

٤. أن من تمام عدله – سبحانه وتعالى– أن جعل جزاء السيئة بمثلها من غير زيادة في ذلك، وضاعَف الحسنة إلى عشر أمثالها، قال جل وعلا: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾[6]، وقال جل شأنه: ﴿ مَّنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾[7]، قال الشوكاني: «أي من عمل في دار الدنيا معصية من المعاصي كائنة ما كانت، فلا يجزى إلا مثلها ولا يعذب إلا بقدرها. والظاهر شمول الآية لكل ما يطلق عليه اسم السيئة»[8].

---

(١) سورة فصلت، الآية ٢٠– ٢٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٤٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية ٨، ٩.

(٤) سورة الزلزلة، الآية ٧، ٨.

(٥) سورة يونس، الآية ٢٧.

(٦) سورة الأنعام، الآية ١٦٠.

(٧) سورة غافر، الآية ٤٠.

(٨) الشوكاني: فتح القدير. (ج٤، ص٤٩٣)، وانظر: الرازي: التفسير الكبير. (ج٢٧، ص١٥٣)، والزمخشري: الكشاف. مراجع سابقة، (ج٤، ص١٧٣).

وقد يتساءل شخص ما، كيف يحكم الله تعالى بخلود الكافر في جهنم مع أنه لم يكفر به إلا في فترة بقائه في الدنيا؟ فالجواب: أن هذا الكافر لو بقي مخلدا في هذه الحياة الدنيا أبدا، لبقي على كفره وشركه أبدا. فاستحق أن يُخلد في النار على ذلك أبدا، وهذا من جزاء السيئة بمثلها.

وكما أن السيئة لا تتجاوز المسيء إلى غيره، فكذلك لا يُحاسب بها إلا من جاء بها، قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[1].

رابعا: المقاصصة العادلة بين الخصوم:

لما كان بوسع العبد في الدنيا أن يتنصل مما عليه من الحقوق والمظالم، وكثير من الناس عجزوا أن يأخذوا حقوقهم أو يستقصوا من ظالميهم، فقد جعل الله تعالى يوم القيامة يوما يقيم فيه العدل بين عباده، ويستوفي المظلوم حقوقه كاملة ممن ظلمه بالميزان السوي، كما قال سبحانه: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[2].

ولما كان لزاما على الظالم في الآخرة أن يفي بحقوق من ظلمه ولا وجود للدنانير ولا الدراهم في ذلك اليوم، فقد بينت السنة أن المناصفة في الحقوق ستكون بالحسنات والسيئات، كما جاء ذلك في حديث أبي هُرَيْرَةَ –ﷺ– قال: قال رسول اللَّهِ –ﷺ–: من كانت له مَظْلَمَةٌ لأحد من عِرْضِهِ أو شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ منه الْيَوْمَ قبل أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ ولا دِرْهَمٌ، إن كان له عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ منه بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ وَإِنْ لم تَكُنْ له حَسَنَاتٌ أُخِذَ من سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عليه"[3]، وعنه – أيضاً– أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –ﷺ– قال: "أَتَدْرُونَ ما الْمُفْلِسُ، قالوا: الْمُفْلِسُ فِينَا من لاَ دِرْهَمَ له ولا مَتَاعَ، فقال: "إِنَّ الْمُفْلِسَ من أُمَّتِي يَأْتِي يوم الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قد شَتَمَ هذا وَقَذَفَ هذا وَأَكَلَ مَالَ هذا وَسَفَكَ دَمَ هذا وَضَرَبَ هذا، فَيُعْطَى هذا من حَسَنَاتِهِ وَهَذَا من حَسَنَاتِهِ. فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قبل أَنْ يُقْضَى ما عليه أُخِذَ من خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عليه،

---

(1) سورة الأنعام، الآية ١٦٤.

(2) سورة الأنبياء، الآية ٤٧.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج٢، ص٨٦٥، حديث رقم: ٢٣١٧).

ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ"[1].

ومما يبين دقة المعاوضة في الحقوق يوم القيامة ما ورد عن عَائِشَةَ- رضي الله عنها- أَنَّ رَجُلا قَعَدَ بين يَدَيْ النبي -ﷺ-، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لي مَمْلُوكِينَ يُكَذِّبُونَنِي وَيَخُونُونَنِي وَيَعْصُونَنِي وَأَشْتُمُهُمْ وَأَضْرِبُهُمْ. فَكَيْفَ أنا منهم؟ قال: " يُحْسَبُ ما خَانُوكَ، وَعَصَوْكَ، وَكَذَّبُوكَ، وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ. فَإِنْ كان عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كان كَفَافًا لاَ لك ولا عَلَيْكَ. وَإِنْ كان عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كان فَضْلا لك. وَإِنْ كان عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ أقتص لهم مِنْكَ الْفَضْلُ. قال: فَتَنَحَّى الرَّجُلُ فَجَعَلَ يَبْكِي وَيَهْتِفُ، فقال رسول اللَّهِ -ﷺ-: أَمَا تَقْرَأُ كِتَابَ اللَّهِ: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ ... الآية ﴾، فقال الرَّجُلُ: والله يا رَسُولَ اللَّهِ ما أَجِدُ لي وَلِهَؤُلاَءِ شيئا خَيْرًا من مُفَارَقَتِهِمْ! أُشْهِدُكُمْ أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ كلهم"[2].

بل من كمال العدل في يوم القيامة أن الاقتصاص والتناصف يتعدى أهل التكليف إلى الحيوانات، فقد جاء عن أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قال: "لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إلى أَهْلِهَا يوم الْقِيَامَةِ حتى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ من الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ"[3].

فظهر بهذا أن من مقتضيات التوازن والتقدير أن الله تعالى لا يترك ميزان عدله مائلا بين خلقه، بل يقيمه بينهم يوم القيامة حتى تُستوفى كافة الحقوق، وتستقصى كافة المظالم، ويُجازي كل أحد من عباده بما هو أهله، إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه. مرجع سابق، (ج٤، ص١٩٩٧، حديث رقم: ٢٥٨١).

(2) أخرجه الترمذي في سننه: (ج٥، ص٣٢٠، حديث رقم: ٣١٦٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، مرجعان سابقان، (ج٢، ص٢٨٠، حديث رقم: ٢٢٩٠).

(3) أخرجه مسلم في صحيحه. مرجع سابق، (ج٤، ص١٩٩٧، حديث رقم: ٢٥٨٢).

الفصل الثاني
ثمرات التوازن

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ثمرات التوازن الكوني.
المبحث الثاني: ثمرات التوازن التشريعي في الدنيا العاجلة.
المبحث الثالث: ثمرات التوازن التشريعي في الآخرة الآجلة.

المبحث الأول

ثمرات التوازن الكوني

مما لا شك فيه أن للتوازن الذي قام عليه الكون ثمرات ومنافع كثيرة سخرها الخالق –جل وعلا– لعباده في هذه الحياة، وسيذكر الباحث طائفة من هذه الثمرات المستنبطة من الآيات القرآنية، وذلك على النحو الآتي:

أولا: تعميق الإيمان بالله تعالى والاهتداء إلى الحق:

من ثمرات التوازن في الخلق زيادة الإيمان بالله تعالى وتعمقه في النفوس، وقد جاءت العديد من الآيات القرآنية لتربط بين الخلق الكوني وبين الإيمان، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[1].

فقد سردت الآية ترتيبا بديعا لما ينتهي إليه خلق الثمار المتنوعة ابتداءا من نزول الماء من السماء الذي به تحصل عملية الإنبات، وانتهاءا باستواء نضج الثمر المتعدد الأشكال والألوان، ثم ربطت بعد ذلك بين هذا التقدير البديع في الخلق وبين الإيمان بالله تعالى الذي يمكن تحصيله من خلال النظر والتأمل في هذا الصنع البديع، ولذلك خُتمت الآية بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾، «يعني يصدقون ويرغبون في الحق»[2].

وفي المقابل ذم الله تعالى الذين يمرون على آياته المتعددة في السماء أو في الأرض، ثم لا ينتفعون بثمرة ما يشاهدونه من الإيمان الذي يُستوحى من عظيم الصنع والتدبير، قال سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[3].

---

(1) سورة الأنعام، الآية ٩٩.

(2) السمرقندي: بحر العلوم. مرجع سابق، (ج١، ص٤٩٠).

(3) سورة يوسف، الآية ١٠٥.

فقوله تعالى: «﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ ﴾، أي وكم من علامةٍ ودليل. ﴿ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، أي في خلق السموات والأرض تدلهم على توحيد الله. ﴿ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾، أي لا يتعظون بها»[1].

ثانيا: التعرف على بعض صفات الخالق جل وعلا:

لما كان من المعروف أن الصانع لأي مصنوع يضع كامل خبرته وقدرته في مصنوعه ذلك، فلا شك أن تلك الخبرة والتقدير وغيرهما تعكس صورة واضحة عما يمتاز به هذا الصانع من الصفات.

وهكذا فعند التأمل في التوازن الكوني عموما، فإن من ثمرة ذلك أن يعرف المتوسم بعض صفات الخالق جل وعلا. وقد بينت الآيات المتعددة هذه المنهجية من خلال الربط بين الخلق والتقدير من جهة، وذِكر بعض صفات الخالق التي تتناسب مع ما أورده من قدرة في الخلق من جهة أخرى، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾[3]، وقوله سبحانه: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[4].

ثالثا: صلاح الأرض لجميع الكائنات وسهولة انتفاع الكائنات بما أودع الله فيها من النعم:

---

(1) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين: تفسير القرآن العزيز، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة، محمد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة، القاهرة– مصر، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، (ج٢، ص٣٤١).

(2) سورة الطلاق، الآية ١٢.

(3) سورة الأنعام، الآية ٩٦.

(4) سورة الروم، الآية ٥٠.

إن الناظر إلى عالم المخلوقات، ومنها الإنسان يجد أنها تتحصل على حاجاتها الضرورية في هذه الحياة بيسر وسهولة. ويرجع كل ذلك إلى التوازن الذي قدره الخالق – سبحانه– في خلقها وفي خلق الأشياء التي تنتفع بها، قال تعالى:﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾[1]، أي «للخلق»[2].

فالمخلوقات على العموم تعيش على الأرض متمكنة فيها غاية التمكن، حتى أن المتأمل في حياتها يعجب من التكيف الدقيق بينها وبين بيئاتها المتنوعة، وكيف أنها تتمكن من الاهتداء إلى سبلها بيسر وسهولة، فطائر كالصقر –مثلا– يستطيع أن يشاهد صيده الصغير على الأرض وهو محلق في الجو، ثم يقتنصه بسهولة ويسر.

وأما طائر الحمام الزاجل فيقطع آلاف الأميال عائداً إلى وطنه بلا (بوصلة)، ولا (خريطة)، ولا دليل. فإذا التبس عليه الطريق حوم برهة ثم قصد طريقه قدماً عائداً إلى موطنه الأصلي دون أن يضل.

وتهتدي النحلة إلى خليتها مهما طمست الريح في هبوبها على الأعشاب والأشجار كل دليل يُرى، فهي لا تضل طريقها إلى خليتها رغم ذلك كله.

وأعجب من ذلك ثعابين الماء التي تهاجر – حين يكتمل نموها – من مختلف البرك والأنهار لتقطع آلاف الأميال في المحيط قاصدة الأعماق السحيقة في جنوبي برمودا. حيث تبيض هناك وتموت. أما صغارها – تلك التي لا تملك وسيلة لتعرف بها أي شئ سوى أنها في مياه قفرة – فإنها تعود أدراجها سالكة طريقها إلى الشاطئ الذي جاءت منه أمهاتها، لتصل في النهاية إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة بدأت نشأة وهجرة أمهاتها منها. لقد قاومت التيارات القوية، وغالبت الأمواج المتلاطمة على كل شاطئ وهي ماضية في طريق ليس لها به أدنى علم من قبل، حتى تصل إلى مياهها الخاصة بها، ولم يحدث مرة أن صيد ثعبان أفريقي في مياه
آسيوية، أو أوروبي في مياه أمريكية أو العكس[3].

---

(1) سورة الرحمن، الآية ١٠.

(2) ابن زمنين: تفسير القرآن العزيز. مرجع سابق، (ج٤، ص٣٢٦).

(3) أنظر: د. محمد عبد الله الشرقاوي: دراسات في العقيدة الإسلامية. مكتبة الزهراء، القاهرة، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩، (ص٦٦– ٦٧).

وصدق الله القائل: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1]، «أي أعطى كل شئ ما فيه مصلحته وهداه لما فيه خلاصه إما بالتسخير وإما بالتعليم»[2].

إن ما يشاهده المرء من حركة دؤوبة لمختلف الأحياء صغيرها وكبيرها في وجه هذه الأرض يتبين له صلاحها الكامل المستوفي لكل أسباب الحياة، قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ٣٢ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٣﴾[3].

قال ابن كثير: «أي دحا الأرض فأنبع عيونها وأظهر مكنونها وأجرى أنهارها وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها وثبت جبالها؛ لتستقر بأهلها ويقر قرارها، كل ذلك متاعا لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذا الدار إلى أن ينتهي الأمد وينقضي الأجل»[4].

رابعا: تمكين الله للإنسان مما سخره له في الأرض وفي السماء:

من ثمرات التوازن الكوني أن الإنسان استطاع أن ينتفع بكثير مما يسره الله له من النعم بعد أن ظهرت له بعض التوازنات القائمة في الأرض وفي السماء، والتي استطاع بموجبها أن يصنع الأجهزة والآلات والوسائل الحديثة والمناسبة لمختلف الاحتياجات والتي مكنته من تذليل ما في البر والبحر والجو، فنشأت على إثر ذلك حضارته الصناعية الكبرى في مختلف مجالات حياته، قال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾[5]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ

---

(1) سورة طه، الآية ٥٠.

(2) الراغب: المفردات في غريب القرآن. مرجع سابق، (ج١، ص٣٩٦).

(3) سورة النازعات، الآية ٣٠- ٣٣.

(4) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج٤، ص٤٧٠).

(5) سورة الجاثية، الآية ١٣.

تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾[١].

قال البيضاوي في تفسيره: «﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾بأن جعله أسبابا محصلة لمنافعكم،﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾بأن مكنكم من الانتفاع به بوسط أو غير وسط[*].﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾، محسوسة ومعقولة، ما تعرفونه وما لا تعرفونه»[٢].

و-أيضا- من الآيات التي بينت تمكين الله للإنسان من الانتفاع بخيرات البحر، قوله تعالى:﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[٣].

خامسا: معرفة عدد السنين والحساب ليضبط الناس أحوالهم على وفقها:

جعل الله تعالى من ثمرات التوازن الكوني معرفة السنين والحساب، ليتمكن الناس من ترتيب شؤونهم وضبط حقوقهم على وفقها، قال سبحانه:﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ﴾[٤]، وقال جل وعلا:﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[٥].

قال البغوي في تأويل قوله تعالى: ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾،أي قدر المنازل لتعلموا عدد السنين دخولها وانقضاءها.﴿وَٱلۡحِسَابَ﴾، يعني حساب الشهور والأيام والساعات»[٦].

---

(١) سورة لقمان، الآية ٢٠.

(*) (هكذا في الأصل)، ولعله أراد بواسطة أو غير واسطة. الباحث.

(٢) البيضاوي: تفسير البيضاوي. مرجع سابق، (ج٤، ص٣٤٩).

(٣) سورة النحل، الآية ١٤.

(٤) سورة الإسراء، الآية ١٢.

(٥) سورة يونس، الآية ٥.

(٦) البغوي: معالم التنزيل. مرجع سابق، (ج٢، ص٣٤٤).

قال الشوكاني مبينا هذه الثمرة الكونية، والمتضمنة لقوله تعالى: «﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾، فإن في العلم بعدد السنين من المصالح الدينية والدنيوية ما لا يحصى، وفى العلم بحساب الأشهر والأيام والليالي من ذلك ما لا يخفى، ولولا هذا التقدير الذي قدره الله سبحانه لم يعلم الناس بذلك ولا عرفوا ما يتعلق به كثير من مصالحهم»[1].

سادسا: الاهتداء بالنجوم وبسبل الأرض لمعرفة الاتجاه الصحيح:

لقد جعل الله تعالى من ثمرات التوازن الكوني أن وضع النجوم في السماء بتوازن دقيق يمكن للعباد في حال ضلالهم لطرقهم في ظلمات البر والبحر، أن ينتفعوا بمواقعها الثابتة في السماء، فيستدلوا بذلك على تعيين الاتجاه الصحيح الذي يريدوا سلوكه أو معرفته، قال تعالى:﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[2]، وقال سبحانه:﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾[3].

قال الرازي مبينا هذه الثمرة: «وهو أنه تعالى خلق هذه النجوم لمنافع العباد وهي من وجوه:

الوجه الأول: أنه تعالى خلقها لتهتدي الخلق بها إلى الطرق والمسالك في ظلمات البر والبحر، حيث لا يرون شمساً ولا قمراً؛ لأن عند ذلك يهتدون بها إلى المسالك والطرق التي يريدون المرور فيها.

الوجه الثاني: وهو أن الناس يستدلون بأحوال حركة الشمس على معرفة أوقات الصلاة، وإنما يستدلون بحركة الشمس في النهار على القبلة، ويستدلون بأحوال الكواكب في الليالي على معرفة القبلة...»[4].

---

(1) الشوكاني: فتح القدير. مرجع سابق، (ج٢، ص٤٢٥).

(2) سورة النحل، الآية ١٦.

(3) سورة الأنعام، الآية ٩٧.

(4) الرازي: التفسير الكبير. مرجع سابق، (ج١٣، ص٨٢).

وجعل مسالك الأرض وطرقاتها المختلفة علامات كذلك للاهتداء إلى الطريق الصواب، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾[1].

فـ«عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، قال: طرقا»[2].

ويؤيد هذا قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾[3]، وقوله جل وعلا: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾[4]، أي «طرقا واسعة»[5].

فتبين بهذا أن الاهتداء هو ثمرة من ثمرات التوازن الكوني البديع.

سابعا: حصول العباد على حاجتهم الكاملة من الراحة والتكسب:

راعى الله تعالى حاجة العباد إلى العمل والراحة، فقدر لذلك الليل والنهار، وجعل من ثمرة التوازن الكوني طولهما المناسب لكلا الحاجتين، فيأخذ العباد حاجتهم الكاملة من العمل والسعي والتكسب في النهار، ثم يأخذون بعد ذلك حاجتهم الكاملة كذلك من الراحة والسكن في الليل، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾[6]، ولو كان الحال ليلا سرمدا أو نهارا سرمدا لتعذرت الحياة، ولكن من رحمته بخلقه وعباده أن قدر لهم الليل والنهار جميعا بما يحقق مصلحتهم واستقامة حياتهم، قال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ

---

(1) سورة النحل، الآية ١٥.

(2) الصنعاني: تفسير القرآن. مرجع سابق، (ج٢، ص٣٥٤).

(3) سورة الأنبياء، ٣١.

(4) سورة نوح، الآية ١٩، ٢٠.

(5) الفيروز آبادي: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس. دار الكتب العلمية، لبنان، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ج١، ص٤٨٧).

(6) سورة الفرقان، الآية ٤٧.

﴿ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾[1].

قال ابن عطية: «ذكر عز وجل انقسام الليل والنهار على السكون وابتغاء الفضل بالمشي والتصرف، وهذا هو الغالب في أمر الليل والنهار، فعدد النعمة بالأغلب وإن وجد من يسكن بالنهار ويبتغي فضل الله بالليل، فالشاذ النادر لا يعتد به»[2].

ثامنا: أخذ العبرة من التوازن الكوني لتصحيح الاعوجاج والفساد عموما:

لما كان الوجود كله قائم على أساس التوازن الذي يستحيل أن يتطرق إليه الخلل مهما بلغ ذلك، ومن ذلك تقليب الله لليل والنهار، كما قال سبحانه: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾[3]، وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾[4]، أو انتظام الفلك، كما قال جل وعلا: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾[5]، وأن حدوث أي خلل في النظام الكوني مهما كان ضئيلا له تبعاته الخطيرة، وقد ظهر للإنسان هذا الأمر بجلاء واضح على وجه الأرض بما أحدثه من فساد في المنظومة البيئية، أو بانتهاك ما حرمه الله عليه ومنعه منه، حتى ظهر الفساد في البر والبحر، كما قال سبحانه: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[6]، فله أن يأخذ ثمرة ذلك كله ويتيقن أن الصلاح عموما هو بالامتناع عن الظلم والطغيان، والقيام بالعدل القائم على أساس الميزان، فيضع الأشياء في مواضعها الصحيحة، ولا يجاوز الحق غير موضعه، قال

---

(1) سورة القصص، الآية ٧١ – ٧٣.

(2) ابن عطية: المحرر الوجيز. مرجع سابق، (ج٤، ص٢٩٧).

(3) سورة النور، الآية ٤٤.

(4) سورة الفرقان، الآية ٦٢.

(5) سورة يس، الآية ٣٨ – ٤٠.

(6) سورة الروم، الآية ٤١.

تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ ﴾[1].

وتأمل إلى ما أحدثه الأستراليون في بلدهم، عندما زرعوا نوعا من الصبار في استراليا، كسياج وقائي، إلا أن هذا الزرع فاجأهم بسرعة انتشاره وتكاثره حتى غطى مساحة انجلترا، وزاحم أهالي المدن والقرى، وأتلف مزارعهم، وحال دون الزراعة. وصار الأهالي عاجزون عن صده عن الانتشار. وصارت استراليا في خطر من اكتساحها بجيش صامت من الزرع يتقدم في سبيله دون عائق. وطاف علماء الحشرات بنواحي العالم، حتى وجدوا أخيرا حشرة لا تعيش إلا على ذلك الصبار فقط، وهي سريعة الانتشار وليس لها عدو يعوقها في استراليا. وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلبت على الصبار، ثم تراجعت ولم يبق منها سوى بقية للوقاية تكفي لصد الصبار عن الانتشار إلى الأبد[2].

وهكذا يظهر أن في التوازن الكوني العبرة والموعظة التي يستلهم منها ذوو البصائر تصحيح الاعوجاج، والاهتداء إلى الحق والصواب عموما.

تاسعا: دحض شُبه الملحدين والمشركين:

من ثمرات التوازن الكوني أنه سِجل مفتوح يشهد بعظمة الخالق –جل وعلا–، وتتحطم على صخرته شبه الملحدين والمشركين، ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١ ﴾[3]، فما يحويه من نظام متناسق، وتدبير بالغ، وعظمة متناهية، لا يجعل للقائلين بالمصادفة مجالا لتمرير مفترياتهم. فالصدفة لا تتفق مع نظام بالغ التعقيد والإتقان، متناه في التنظيم والإحسان، خال من الخطأ والعوج. ولو تأمل هؤلاء الملحدون في مراحل خلقهم – فقط– التي مروا بها حتى اكتمل نموهم؛ لتبخرت فرية المصادفة من رؤوسهم تماما، قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ

---

(1) سورة الرحمن، الآية ٧ – ٩.

(2) أنظر: ا. كرسي موريسون: العلم يدعوا للإيمان. مرجع سابق، (ص١٥٩، ١٦٠).

(3) سورة يونس، الآية ١٠١.

مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[1]، فهل يمكن أن يكون للمصادفة في هذه المراحل مكانا؟! فكيف والنظام والتدبير هو القائم في كل شيء في الوجود، في أحيائه وجماداته في كل لحظة من اللحظات؟!.

ولهذا فإن من أبرز الثمرات التي يستلهمها من يُقَلِّب بصره في هذا الكون المتزن أن يظهر له سفه من يجعل من الوجود كله طفرة لصدفة عابرة خلفته وراءها ليظل قائما بلا رعاية ولا توجيه، أو أن يجعله صنعا لبشر أو حجر ليس له فيه وزن، ولا يملك لنفسه فيه حولا ولا قوة، فضلا عن أن يحرك أفلاكه وأجرامه، ويرفع سماءه ويبسط أرضه، ويرعى ما فيه من المخلوقات فلا ينسى منها أحدا.

كيف لعاقل أن يقبل أن للكون مدبر غير الله تعالى؟!

إن الناظر إلى صفحات الكون سيقطف ثمرة يانعة لا ريب فيها، يردد بقلبه وبكل كيانه ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾﴾[2].

فتتهاوى عند ذلك كل شبهة وفرية، ويبقى الحق الذي يمليه التدبير والتقدير البديع لخالق الكون – جل وعلا– هو الذي يستقر في النفوس، وتتقبله العقول والأفئدة، فيعطي نتيجة نهائية تخبر بلسان الحال أن الخلق لا يستقيم أمره إلا بمدبر واحد، ومتصرف واحد هو الله رب العالمين ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن

---

(1) سورة المؤمنون، الآية ١٢– ١٤.

(2) سورة الرعد، الآية ٣ – ٤.

﴿تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾[1]، و﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾[2]، والذي ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾[3].

(١) سورة الملك، الآية ٣.

(٢) سورة السجدة، الآية ٧.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ٢٢.

المبحث الثاني

ثمرات التوازن التشريعي في الدنيا العاجلة

لقد جعل الله تعالى لمن ثبت على ميزان الشرع واستقام عليه ولم يتجاوزه أو ينحرف عنه ثمرات عديدة يتحصل عليها في الدنيا قبل الآخرة، وسيورد الباحث بعضا من تلك الثمرات التي صرح بها القرآن الكريم، وذلك على النحو الآتي:

١. الحياة الطيبة:

إن الحياة الطيبة لا يدركها إلا من لازم الشرع الحنيف، ولذلك جعلها الله تعالى ثمرة من ثمراته التي يجد العبد لذتها في حياته المادية والمعنوية، قال جل وعلا: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[١]، فقد جعل المولى- سبحانه- العمل الصالح المناقض للفساد، والملازم لطريق الاستقامة الذي أمر به ورسوله -ﷺ- سببا لنيل الحياة الطيبة في الدنيا قبل الآخرة، فقد جاء «عن ابن عباس - رضي الله عنهما- أنه سئل عن هذه الآية: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾، قال: الحياة الطيبة: الرزق الحلال في هذه الحياة الدنيا»[٢].

وقال أبو السعود في تفسيره: «﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ في الدنيا، يعيش عيشا طيبا. أما إن كان موسرا فظاهر، وأما إن كان معسرا فيطيب عيشه بالقناعة والرضى بالقسمة وتوقع الأجر العظيم، كالصائم يطيب نهاره بملاحظة نعيم ليله، بخلاف الفاجر فإنه إن كان معسرا فظاهر، وإن كان موسرا فلا يدعه الحرص وخوف الفوات أن يتهنأ بعيشه»[٣].

---

(١) سورة النحل، الآية ٩٧.

(٢) عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي: الدر المنثور. مرجع سابق، (ج٥، ص١٦٤).

(٣) أبو السعود: إرشاد العقل السليم. (ج٥، ص١٣٩)، وانظر: جلال الدين السيوطي: الدر المنثور. مرجعان سابقان، (ج٥، ص١٦٤).

ونظير هذه الآية قول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾[1]، فقد ورد أن تأويل قوله: «﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾، أي الصحة والعافية، وقيل: الرزق الواسع، ويقال: العيش في طاعة الله»[2].

ولا يمنع دخول ذلك كله في معنى الحسنة.

وكما أن الحياة الطيبة ثمرة للتوازن التشريعي، فإن المخالفة له والإعراض عنه يفقد هذه الثمرة، بل ويُبدَل المِعرض بنقيضها من حياة الضيق والضنك، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[3].

قال ابن عطية: «وأن من أعرض عن ذكر الله وكفر به فإن له معيشة ضنكا. والضنك: النكد الشاق من العيش، أو المنازل، أو مواطن الحرب ونحو هذا»[4].

٢. الطمأنينة:

يمنح التوازن التشريعي للعبد المؤمن الاطمئنان النفسي وهدوء البال، ويصرف عنه القلق والاضطراب، ويُقِرّه على أمر الله تعالى، قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[5].

قال الشوكاني في تأويل قوله تعالى: «﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾، أي تسكن وتستأنس بذكر الله – سبحانه– بألسنتهم، كتلاوة القرآن، والتسبيح، والتحميد، والتكبير، والتوحيد، أو بسماع ذلك من غيرهم ...، وقيل: تطمئن قلوبهم بتوحيد الله. وقيل: المراد بالذكر هنا الطاعة. وقيل: بوعد الله. وقيل: بالحلف بالله، فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه. وقيل: بذكر رحمته.

---

(١) سورة النحل، الآية ٣٠.

(٢) السمعاني: تفسير القرآن. (ج٤، ص٤٦١)، وانظر: جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي: تفسير الجلالين. (ج١، ص٣٤٩)، والرازي: التفسير الكبير. مراجع سابقة، (ج٢٦، ص٢٢٠).

(٣) سورة طه: الآية ١٢٤.

(٤) ابن عطية: المحرر الوجيز. (ج٤، ص٦٨)، وانظر: الثعالبي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن. (ج٣، ص٤٢)، والسمرقندي: بحر العلوم. مراجع سابقة، (ج٢، ص٤١٦).

(٥) سورة الرعد، الآية ٢٨.

وقيل: بذكر دلائله الدالة على توحيده»[1].

وما من شك أن التشريع كله يورث طمأنينة القلب، ويدفع عنه الريبة والقلق. وتأمل في بيان النبي-ﷺ- لحقيقة الإثم وما يحدثه في النفس من قلق عندما سئل عنه وعن البر، فقال مجيبا لمن سأله عن ذلك: "... وَالإِثْمُ ما حَاكَ في صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليه الناس"[2].

«ومعنى حاك في صدرك: أي تحرك فيه وتردد ولم ينشرح له الصدر وحصل في القلب منه الشك... »[3]، فالبر طمأنينة وسكون، والإثم قلق واضطراب.

وعن اِلْحَسَنِ بن عَلِيٍّ[4]-رضي الله عنهما- قال: حَفِظْتُ من رسول اللَّهِ-ﷺ-: "دَعْ ما يَرِيبُكَ إلى مالا يَرِيبُكَ، فإن الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ ..."[5].

وكذلك يجني المؤمن ثمرة الطمأنينة ما دام يدور في رحاب التوازن التشريعي حتى مع ما قد يصيب النفس من حالات الإحباط والضيق نتيجةً لقلة ما في اليد من الخير والمتاع، أو بسبب ما يعترض الإنسان من حالات الابتلاء المتعددة التي قد تلحقه في هذه الحياة الدنيا سواء في نفسه أو أهله أو ماله، وذلك من خلال ما يرسمه له من منهجية ترشده إلى صرف النظر عمن هو أكثر منه حيازة للنعم، والنظر إلى من هو أدنى منه في ذلك وأكثر بلاءا؛ فإنه ما من مصيبة تصيب العبد إلا وفي

---

(1) الشوكاني: فتح القدير. مرجع سابق، (ج٣، ص٨١).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث النَّوَّاسِ بن سِمْعَانَ الأَنْصَارِيِّ. مرجع سابق، (ج٤، ص١٩٨٠، حديث رقم: ٢٥٥٣).

(3) النووي: صحيح مسلم بشرح النووي. مرجع سابق، (ج١٦، ص١١١).

(4) هو الحسن بن علي بن أبي طالب – رضي الله عنهما- ريحانة رسول الله -ﷺ- وابن بنته السيدة فاطمة الزهراء، ولد في شعبان سنة ثلاث من الهجرة، وقيل: في نصف شهر رمضان، له صحبة ورواية عن أبيه وجده، كان يشبه النبي ﷺ، بايعه أهل الكوفة بالخلافة بعد قتل أبيه وكانوا تسعين ألفا أو نحوها، وأطاعوه وأحبوه أشد من حبهم لأبيه، فبقي فيها ستة أشهر أو سبعة أو نحو ذلك، فتمت بها خلافة النبوة ثلاثين سنة، ثم إنه صالح معاوية سنة إحدى وأربعين بسواد الكوفة، فسمي عام الجماعة وسلم الأمر إليه، توفي في شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين بالمدينة، وقيل: سنة خمسين، وله سبع وأربعون سنة أو ست وأربعون، وقيل ثمان وخمسون سنة. أنظر: الصفدي: الوافي بالوفيات. (ج١٢، ص٦٧ –٦٩)، وابن حجر: الإصابة. مرجعان سابقان، (ج٢، ص٦٨– ٧٣).

(5) أخرجه أحمد في مسنده: (ج٣، ص١٥٣، حديث رقم: ١٢٥٧٢)، والترمذي في سننه: (ج٤، ص٦٦٨، حديث رقم: ٢٥١٨)، وابن حبان في صحيحه: (ج٢، ص٤٩٩، حديث رقم: ٧٢٢)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين. مراجع سابقة، (ج٢، ص١٥، حديث رقم: ٢١٦٩)، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

الوجود ما هو أعظم منها. فحينها تستقر النفس، ويظهر للعبد عند ذلك عِظَم النعمة وهوان المصيبة التي هو فيها مقارنة بغيرها من المصائب النازلة على كثير من الناس، فعن أبي هُرَيْرَةَ -ﷺ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قال: "إذا نَظَرَ أحدكم إلى من فُضِّلَ عليه في الْمَالِ وَالْخَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ إلى من هو أَسْفَلَ منه مِمَّنْ فُضِّلَ عليه"(١).

كما أن الشرع الحكيم لم يكتف بتوطين الطمأنينة في النفس بمجرد صرف النظر عن المُنعم عليهم، بل أجزل الأجر والثواب لمن واجه المصائب بالصبر والرضا، فعن عَائِشَةَ- رضي الله عنها- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قال: "ما من مُصِيبَةٍ يُصَابُ بها الْمُسْلِمُ إلا كُفِّرَ بها عنه حتى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا"(٢)، وعن أبي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ- رضي الله عنهما- أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يقول: "ما يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ من وَصَبٍ(٣) ولا نَصَبٍ ولا سَقَمٍ ولا حَزَنٍ حتى الْهَمِّ يُهَمُّهُ إلا كُفِّرَ بِهِ من سَيِّئَاتِهِ"(٤).

فالطمأنينة ثمرة ظاهرة في التوازن التشريعي يجنيها المؤمن في كل الأحوال. ولذلك أشار النبي-ﷺ- إليها في قوله: "عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ إن أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا له، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا له"(٥).

٣. الهداية:

من أبرز ثمرات التوازن التشريعي التي يتحصل عليها المؤمن في هذه الحياة الدنيا هي هداية الله تعالى له إلى صراطه المستقيم، قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾(٦).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. مرجع سابق، (ج٤، ص٢٢٧٥، حديث رقم: ٢٩٦٣).

(٢) المرجع نفسه. (ج٤، ص١٩٩٢، حديث رقم: ٢٥٧٢).

(٣) الوصب: الوجع اللازم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾ [سورة الصافات، الآية ٩]، أي لازم ثابت. النووي: صحيح مسلم بشرح النووي. مرجع سابق، (ج١٦، ص١٣٠).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه. مرجع سابق، (ج٤، ص١٩٩٢، حديث رقم: ٢٥٧٣).

(٥) المرجع نفسه من حديث صهيب ﷺ. (ج٤، ص٢٢٩٥، حديث رقم: ٢٩٩٩).

(٦) سورة الحج، الآية ٥٤.

«والهداية: معرفة الحق والعمل به. فمن لم يجعله الله تعالى عالما بالحق عاملا به لم يكن له سبيل إلى الاهتداء. فهو – سبحانه– المتفرد بالهداية الموجبة للاهتداء التي لا يُتخلف عنها، وهي جعل العبد مريدا للهدى محبا له مؤثرا له عاملا به.

فهذه الهداية ليست إلى ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهي التي قال سبحانه فيها: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾[1] »[2].

فهذه الهداية يتحصل عليها المؤمن مادام ملازما لميزان الشرع قائما به، ولذلك قال سبحانه:﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[3]، فقد «أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمتعلق؛ ليتناول المجاهدة في النفس الأمّارة بالسوء، والشيطان، وأعداء الدين. وما ورد من أقوال العلماء، فالمقصود بها المثال، قال ابن عباس–ﷺ–: جاهدوا أهواءهم في طاعة الله، وشكر آلائه، والصبر على بلائه. ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ ﴾: لنزيدنهم هداية إلى سبيل الخير، كقوله:﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾[4] »[5].

وتأمل في قوله تعالى:﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ ﴾[6]، قال الطبري في تأويل الآية: «يقول جل ثناؤه لنبيه محمد –ﷺ–: فبشر يا محمد عبادي الذين يستمعون القول من القائلين فيتبعون أرشده وأهداه وأدله على توحيد الله والعمل بطاعته، ويتركون ما سوى ذلك من القول الذي لا يدل على رشاد ولا يهدي إلى سداد»[7].

---

(1) سورة القصص، الآية ٥٦.

(2) أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل. تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ، (ج١، ص٥٣).

(3) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

(4) سورة محمد، الآية ١٧.

(5) أبو حيان: تفسير البحر المحيط. مرجع سابق، (ج٧، ص١٥٥).

(6) سورة الزمر، الآية ١٧، ١٨.

(7) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٢٣، ص٢٠٦).

فقد جعل الله تعالى ثمرة اتِّباع القول الحسن الذي يدل على السداد والبعد عن العوج والفساد، هي الهداية التي توصل إلى رضاه سبحانه وتعالى، ويؤيد هذا قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ ﴾[1].

قال الزمخشري في تفسيره: أي «يسدّدهم بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك السبيل المؤدّي إلى الثواب»[2].

فظهر بهذا أن الهداية ثمرة من ثمرات التوازن التشريعي التي يحصل عليها العبد المؤمن من الله تعالى في هذه الدنيا، والتي بموجبها يُيسر للهدى والعمل به؛ ليتسنى له الوصول إلى مرضاته تعالى، ونيل ثوابه في الآخرة.

٤. السعة في الرزق:

السعة في الرزق ثمرة من الثمرات التي يحصدها العبد المؤمن بسبب ملازمته للتوازن التشريعي، وقد جاءت في القرآن الكريم آيات عديدة تبين هذا الأمر وتوضحه، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦ ﴾[3].

قال النسفي في تفسيره: «﴿ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾، أي ليسرنا عليهم الخير من كل جانب. وقيل: المراد بالبركات السماوية: المطر، وبالبركات الأرضية: النبات»[4].

ومما يزيد هذه الأمر وضوحا هو ما قاله الله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ ﴾[5].

---

(1) سورة يونس، الآية ٩.

(2) الزمخشري: الكشاف. مرجع سابق، (ج٢، ص٣١٥).

(3) سورة الأعراف، الآية ٩٦.

(4) الآلوسي: روح المعاني. (ج٩، ص١٠)، وانظر: السيوطي: الدر المنثور. (ج٣، ص٥٠٥)، والسمرقندي: بحر العلوم. (ج١، ص٥٤٩)، والرازي: التفسير الكبير. مراجع سابقة، (ج١٤، ص١٥١).

(5) سورة المائدة، الآية ٦٦.

قال الشنقيطي: «ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن أهل الكتاب لو أطاعوا الله، وأقاموا كتابهم باتباعه والعمل بما فيه؛ ليسر الله لهم الأرزاق، وأرسل عليهم المطر، وأخرج لهم ثمرات الأرض»[1].

فعلق المولى-عز وجل- الحصول على ثمرة السعة في الرزق بطاعته، وإقامة دينه. ولا يخفى ما في هذا من تلازم بين هذه الثمرة والتوازن التشريعي، بل قد جاءت الإشارة إلى هذا الأمر صراحة، كما في قوله سبحانه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾[2].

«قال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وابن جبير:... والمعنى: لو استقاموا على طريقة الإسلام والحق لأنعمنا عليهم»[3].

ونظير ما سبق من الآيات الدالة على ملازمة السعة في الرزق للتوازن التشريعي، ما قاله الله سبحانه عن قيل نوح-عليه السلام- لقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾[4]، وعن قيل هود-عليه السلام- لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[5]، وما قاله محمدا -ﷺ- لقومه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[6]، وقوله سبحانه وتعالى عموما لكل العباد: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[7].

---

(1) الشنقيطي: أضواء البيان. (ج١، ص٤١٦)، وانظر: الزمخشري: الكشاف. (ج١، ص٦٩٠، ٦٩١)، وأبو السعود: إرشاد العقل السليم. مراجع سابقة، (ج٣، ص٦٠).

(2) سورة الجن، الآية ١٦.

(3) الثعالبي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن. مرجع سابق، (ج٤، ص٣٤٨).

(4) سورة نوح، الآية ١٠- ١٢.

(5) سورة هود، الآية ٥٢.

(6) سورة هود، الآية ٣.

(7) سورة الطلاق، الآية ٢، ٣.

وفي السنة الشريفة عن أَنَسٍ-ﷺ-أن رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قال: "إن اللَّهَ-عز وجل- لاَ يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً، يُثَابُ عليها الرِّزْقَ في الدُّنْيَا وَيُجْزَى بها في الآخِرَةِ ..."[1].

وبالمقابل فمتى زاغ العبد عن حيز التوازن التشريعي، فإن انحرافه سيكون موجبا لحرمانه من نعمة سعة الرزق، وقد جاء في كتاب الله تعالى ما يدل على هذا الأمر، ويمكن ملاحظة ذلك في القصة التالية التي بينت ذهاب النعمة وفقدانها من بين يدي صاحبها بسبب انحرافه عن توازن الشرع المأمور به، قال تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرٗا ٤٣ ﴾[2].

وجاء في السنة أن رسول اللَّهِ -ﷺ- قال: "... وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ"[3].

---

(1) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده. (ج1، ص269، حديث رقم: 2011)، وأحمد في مسنده. مرجعان سابقان، (ج3، ص125، حديث رقم: 12286)، وأخرجه عبد بن حميد بن نصر أبو محمد الكسي في المنتخب من مسند عبد بن حميد. تحقيق: صبحي البدري السامرائي، محمود محمد خليل الصعيدي، مكتبة السنة، القاهرة، ط1، 1408هـ /1988م، (ج1، ص355، حديث رقم: 1178)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة المختصرة، مرجع سابق، (ج1، ص119، رقم: 53).

(2) سورة الكهف، الآية 32- 43.

(3) أخرجه أحمد في مسنده. (ج5، ص277، حديث رقم: 22440)، وابن ماجه في سننه. (ج2، ص1334، =

فتبين بهذا أن السعة في الرزق تدور مع التوازن التشريعي حيثما دار، فإذا لازمه العبد حصل عليها وصفى له كدرها، وإذا انحرف عنه حُرم منها، وتكدر له صفاؤها.

٥. التمكين والاستخلاف في الأرض:

لقد وعد الله عباده المؤمنين إذا لازموا شرعه، ولم يحيدوا عنه أن ينالوا في هذه الدنيا ثمرة الاستخلاف والتمكين في الأرض، وقد جاء التصريح في القرآن الكريم بهذه الثمرة في قوله سبحانه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[1].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بالله ورسوله ﴿ مِنكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، يقول: وأطاعوا الله ورسوله فيما أمراه ونهياه؛ ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، يقول: ليورثنهم الله أرض المشركين من العرب والعجم، فيجعلهم ملوكها وساستها، ﴿ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾، يقول: كما فعل من قبلهم ذلك ببني إسرائيل، إذ أهلك الجبابرة بالشام وجعلهم ملوكها وسكانها. ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾، يقول: وليوطئن لهم دينهم، يعني ملتهم التي ارتضاها لهم فأمرهم بها»[2].

ولقد تحقق ما وعد الله به في هذه الآية من الاستخلاف للمؤمنين القائمين بأمر الله لطليعة هذه الأمة من الصحابة الراشدين الذين توازنوا على وفق ما أمرهم الله به ورسوله -ﷺ- فلم يحيدوا عن ذلك شيئا، فاستخلفهم الله على مشارق الأرض ومغاربها،

= حديث رقم: ٤٠٢٢)، وابن حبان في صحيحه: (ج٣، ص١٥٣، حديث رقم: ٨٧٢)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين من حديث ثوبان. مراجع سابقة، (ج١، ص٦٧٠، حديث رقم: ١٨١٤)، وقال عنه: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(١) سورة النور، الآية ٥٥.

(٢) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١٨، ص١٥٨، ١٥٩).

وقد«... أُستخلف ممن خُوطب بهذا أربعة: أبا بكر، وعمر، وعثمان[1]، وعليا رضي الله عنهم»[2].

ويبقى العموم ساريا في هذه الآية، إذ لا دليل على التخصيص.

قال القرطبي: «فصح أن الآية عامة لأمة محمد -ﷺ- غير مخصوصة؛ إذ التخصيص لا يكون إلا بخبر ممن يجب له التسليم. ومن الأصل المعلوم التمسك بالعموم»[3].

ومما يدل على أن هذه الثمرة ملازمة للتوازن التشريعي، هو قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾[4].

قال أبو السعود: «﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ هو كتاب دواد -عليه السلام-، وقيل: هو اسم لجنس ما أنزل على الأنبياء عليهم السلام. ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أي التوراة. وقيل: اللوح المحفوظ، أي وبالله لقد كتبنا في كتاب داود بعد ما كتبنا في التوراة، أو كتبنا في جميع الكتب المنزلة بعدما كتبنا وأثبتنا في اللوح المحفوظ ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، أي عامة المؤمنين بعد إجلاء الكفار، وهذا وعد منه -تعالى- بإظهار الدين وإعزاز أهله...»[5].

---

(1) هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس أمير المؤمنين أبو عمرو، وقيل: أبو عبد الله القرشي الأموي، ولد قبل عام الفيل بستة أعوام وقيل بعده بستة أعوام، أحد السابقين الأولين، وذو النورين، وصاحب الهجرتين، وزوج الابنتين، بُويع بالخلافة لما مات عمر -رضي الله عنه- في ذي الحجة سنة أربع وعشرين من الهجرة، فدام في الخلافة حتى قتل صبرا في داره، والمصحف بين يديه، وزوجته نائلة عنده في عصر يوم الجمعة ثامن عشر ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، عن اثنتين وثمانين سنة فقاز -رضي الله عنه- بالشهادة. أنظر: الإمام شمس الدين السخاوي: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة. دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، (ج٢، ص٢٤٧- ٢٤٩)، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، طبعة بدون ترقيم، (د - ت)، (ج١/ص٩٣).

(2) أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس: إعراب القرآن. تحقيق: د.زهير غازي زاهد، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، (ج٤، ص٣٨٨).

(3) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. مرجع سابق، (ج١٢، ص٢٩٩).

(4) سورة الأنبياء، الآية ١٠٥، ١٠٦.

(5) أبو السعود: إرشاد العقل السليم. (ج٦، ص٨٨)، وانظر: الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل. مرجعان سابقان، =

وبين الشنقيطي القول الراجح في تأويل الآية قائلا: «أظهر الأقوال عندي في هذه الآية الكريمة: أن الزبور الذي هو الكتاب: يراد به جنس الكتاب، فيشمل الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل وزبور داود وغير ذلك. وأن المراد بالذكر: أم الكتاب. وعليه فالمعنى: ولقد كتبنا في الكتب المنزلة على الأنبياء أن الأرض يرثها عبادي الصالحون بعد أن كتبنا ذلك في أم الكتاب، وهذا المعنى واضح لا إشكال فيه»[1].

فظهر بموجب هذا المعنى أن الاستخلاف في الأرض ثمرة ممنوحة من الله تعالى للصالحين من عباده في كل زمان وحين، ينالوها متى ما كانوا قائمين على الصلاح ومبتعدين عن نقيضه من الفساد.

٦. عدم تسليط الكافرين:

يمنح الله عباده المؤمنين الملازمين للشرع الحنيف ثمرة طيبة تتمثل في عدم تسليط الكافرين عليهم في هذه الحياة الدنيا، قال سبحانه: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[2]، وقد يتساءل سائل، كيف يخبر الله – عز وجل– عن عدم تسليط الكفار على المؤمنين وما يشاهد في الواقع هو خلاف ذلك؟

فقد «قال علي وابن عباس–ﷺ–: أراد به في القيامة. وقيل: هو سبيل الحجة، أي لا تكون الحجة للكافرين على المؤمنين أبدا»[3].

إلا أن أبا بكر ابن العربي لم يرتض هذين التأويلين، وقد رد عليهما قائلا:

«أما حمله على نفي وجود الحجة من الكافر على المؤمن فذلك ضعيف؛ لأن وجود الحجة للكافر محال، فلا يتصرف فيه الجعل بنفي ولا إثبات.

وأما نفي وجود الحجة يوم القيامة فضعيف؛ لعدم فائدة الخبر فيه وإن أوهم صدر الكلام معناه لقوله: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، فأخر الحكم إلى يوم القيامة وجعل الأمر في الدنيا دولة تغلب الكفار تارة وتغلب أخرى بما رأى من الحكمة وسبق

= (ج٣، ص٣٣).

(١) الشنقيطي: أضواء البيان. مرجع سابق، (ج٤، ص٢٤٩).

(٢) سورة النساء، الآية ١٤١.

(٣) السمعاني: تفسير القرآن. مرجع سابق، (ج١، ص٤٩٣).

من الكلمة، ثم قال: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾، فتوهم من توهم أن آخر الكلام يرجع إلى أوله وذلك يسقط فائدته، وإنما معناه ثلاثة أوجه:

الأول: لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا يمحو به دولة المؤمنين ويذهب آثارهم ويستبيح بيضتهم كما جاء في الحديث- عن النبي -ﷺ-: "ودعوت ربي ألا يسلط عليهم عدوا من غيرهم يستبيح بيضتهم فأعطانيها"(١).

الثاني: أن الله سبحانه لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا منه إلا أن تتواصوا بالباطل ولا تتناهوا عن المنكر وتتقاعدوا عن التوبة، فيكون تسليط العدو من قبلكم وهذا نفيس جدا.

الثالث: أن الله سبحانه لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا بالشرع، فإن وجد ذلك فبخلاف الشرع»(٢).

والمعنى الثاني الذي رجحه يبين بجلاء أن هذه الثمرة قائمة في الدنيا للمؤمنين ما داموا قائمين على الشرع القويم، وأن تسليط الله للكافرين عليهم إنما يحدث عندما ينحرفوا عن ميزان الشرع الذي أمروا بإقامته.

٧. النصر:

النصر ثمرة من الثمرات المتعددة للتوازن التشريعي التي يقطفها العبد المؤمن الملازم له، قال سبحانه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾(٣)، وقال جل وعلا: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه من حديث خباب بن الأرت: (ج٤، ص٤٧١، حديث رقم: ٢١٧٥)، وقال: هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ صحيح وفي الْبَاب عن سَعْدٍ وابن عُمَرَ، وقد جاء نحو هذا الحديث عند مسلم في صحيحه. مرجعان سابقان، (ج٤، ص٢٢١٥، حديث رقم: ٢٨٨٩)، من حديث ثوبان -ﷺ- بلفظ: " ... وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا من سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قال: يا محمد إني إذا قَضَيْتُ قَضَاءً فإنه لا يُرَدُّ. وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا أُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا من سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عليهم من بِأَقْطَارِهَا، أو قال: من بين أَقْطَارِهَا، حتى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا".

(٢) ابن العربي: أحكام القرآن. مرجع سابق، (ج١، ص٦٤٠، ٦٤١).

(٣) سورة غافر، الآية ٥١.

(٤) سورة الروم، الآية ٤٧.

قال الشوكاني: «هذا إخبار من الله سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه، وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد. وفيه تشريف للمؤمنين ومزيد تكرمة لعباده الصالحين»[1].

ومما يؤكد ملازمة هذه الثمرة للتوازن التشريعي، قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾[2]، قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾، فيه حذف مضاف، أي دين الله ورسوله. والمعنى: تنصروه بجدكم واتباعكم وإيمانكم، ينصركم بخلق القوة لكم والجرأة، وغير ذلك من المعاون»[3]، ونظير هذه الآية قوله سبحانه: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ﴾[4]، فقد عقَّبت الآية التالية لتبين بوضوح أن ثمرة النصر التي وعد الله بها عباده المؤمنين لا يمكن الحصول عليها بعيدا عن منهج الله القويم، بل بملازمته والاستقامة عليه، قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١ ﴾[5].

قال الشنقيطي مبينا هذا الأمر: «وفي قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ دليل على أنه لا وعد من الله بالنصر إلا مع إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. فالذين يمكِّن الله لهم في الأرض ويجعل الكلمة فيها والسلطان لهم ومع ذلك لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فليس لهم وعد من الله بالنصر؛ لأنهم ليسوا من حزبه ولا من أوليائه الذين وعدهم بالنصر، بل هم حزب الشيطان وأولياؤه. فلو طلبوا النصر من الله بناء على أنه وعدهم إياه، فمثلهم كمثل الأجير الذي يمتنع من عمل ما أجر عليه ثم يطلب الأجرة، ومن هذا شأنه فلا عقل له»[6].

---

(1) الشوكاني: فتح القدير. (ج٤، ص٢٣٠)، وانظر: أبو حيان: تفسير البحر المحيط. (ج٧، ص١٧٣)، وأبو السعود: إرشاد العقل السليم. مراجع سابقة، (ج٧، ص٦٤).

(2) سورة محمد، الآية ٧.

(3) ابن عطية: المحرر الوجيز. مرجع سابق، (ج٥، ص١١٢).

(4) سورة الحج، الآية ٤٠.

(5) سورة الحج، الآية ٤١.

(6) الشنقيطي: أضواء البيان. مرجع سابق، (ج٥، ص٢٦٦).

وجاء في السنة الشريفة ما يفيد بأن هذه الثمرة حاصلة لمؤمني هذه الأمة في حال استقامتهم على ميزان الشرع الحكيم، فعن جَابِرُ بن عبد اللَّهِ -رضي الله عنه- أَنَّ النبي-ﷺ- قال: "... نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ..."[1]، وعن أُبي بن كعب -رضي الله عنه- قال رسول الله -ﷺ-: "بَشِّرْ هذه الأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ، وَالرِّفْعَةِ، وَالدِّينِ، **وَالنَّصْرِ**، **وَالتَّمْكِينِ** في الأَرْضِ..."[2].

وبهذا يتبين مما سبق من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، أن ثمرة النصر من الثمرات التي وعد الله تعالى بها عباده المؤمنين إن امتثلوا شرعه الحنيف.

٨. الأمن:

جعل الله تعالى الأمن وذهاب الخوف ثمرة من الثمرات التي تضمنها التوازن التشريعي التي وعد بها – سبحانه- عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات في هذه الحياة الدنيا، قال جل وعلا: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾[3]، وتأمل في تشديد اللفظ: ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم ﴾ في «قوله تعالى: ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾، فالتشديد لتكرير الفعل من الأمن بعد الخوف مرة بعد مرة، وأمنا بعد أمن»[4].

بل يخبر القرآن الكريم أن قيام الناس بإصلاح المفاسد والنهي عنها، حتى تستقيم أمور الناس مع ميزان الشرع يمثل صمام أمان من الهلاك، قال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾[5].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج١، ص١٢٨، حديث رقم: ٣٢٨).

(2) أخرجه أحمد في مسنده. (ج٥، ص١٣٤، حديث رقم: ٢١٢٥٨)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه: (ج٢، ص١٣٢، حديث رقم: ٤٠٥)، وأورده الحاكم في مستدركه على الصحيحين. مراجع سابقة، (ج٤، ص٣٤٦، حديث رقم: ٧٨٦٢)، وقال عنه: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(3) سورة النور، الآية ٥٥.

(4) الحسين بن أحمد بن خالويه أبو عبد الله: الحجة في القراءات السبع. تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت، ط٤، ١٤٠١هـ، (ج١، ص٢٢٩).

(5) سورة هود، الآية ١١٧.

قال الزمخشري: «﴿كَانَ﴾: بمعنى صح واستقام، واللام: لتأكيد النفي. و ﴿بِظُلْمٍ﴾: حال من الفاعل، والمعنى: واستحال في الحكمة أن يهلك الله القرى ظالماً لها، ﴿وَأَهْلُهَا﴾ قوم ﴿مُصْلِحُونَ﴾. تنزيهاً لذاته عن الظلم، وإيذاناً بأن إهلاك المصلحين من الظلم...»[1].

وبين أبو السعود الوجه الراجح في تأويل قوله سبحانه:﴿لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾، قائلا: «فالوجه حمل الظلم على مطلق الفساد الشامل للشرك وغيره من أصناف المعاصي، وحمل الإصلاح على إصلاحه والإقلاع عنه بكون بعضهم متصدين للنهي عنه وبعضهم متوجهين إلى الاتعاظ غير مصرين على ما هم عليه من الشرك وغيره من أنواع الفساد»[2].

ومدلول ثمرة الأمن للتوازن التشريعي حاصلة على كلا المعنيين، فالله لا يظلم القرى فيهلكها وأهلها قوم مصلحون، بل العدل أن يحفظها من الهلاك ويمنحها الأمن مادامت كذلك. وأما بالنسبة للمعنى الثاني، فثمرة الأمن مُستوجَبة بسبب قيام أهل القرى بالإصلاح الذي يستوجب النهي عن مطلق الفساد والإقلاع عنه بما يؤدي إلى الاستقامة على التوازن التشريعي.

وبالعكس من ذلك، فمخالفة الصلاح إلى الفساد يفقد ثمرة الأمن، ويُحل بدلا عنها الخوف والهلاك، قال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾[3]، فقد جاء في تأويل قوله: «﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً﴾، ذات أمن لا يغار على أهلها،﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ قارة بأهلها لا يحتاجون إلى الانتقال عنها لخوف أو ضيق، ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾، يجلب إليها من كل بلد، كما قال: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[4]، ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾حين كذبوا رسوله

---

(1) الزمخشري: الكشاف. مرجع سابق، (ج٢، ص٤١٣).

(2) أبو السعود: إرشاد العقل السليم. مرجع سابق، (ج٤، ص٢٤٨).

(3) سورة النحل، الآية ١١٢.

(4) سورة القصص، الآية ٥٧.

-ﷺ-، ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ ﴾، عذبهم الله بالجوع سبع سنين، ﴿وَٱلْخَوْفِ ﴾ من سرايا النبي -ﷺ- التي كان يبعثهم إليهم فيطوفون بهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾من تكذيب النبي -ﷺ- وإخراجه من مكة»[1].

فمتى حدث الانحراف عن الشرع فقدت ثمرة الأمن الملازمة له، والعكس بالعكس.

بل إن الأحكام والحدود المقدرة شرعا إذا ما نفذت كما أمر بها الشرع الحكيم فإن ثمرة الأمن محققة في حياة الناس ولو كانوا غير مسلمين؛ لأن الشرع الحكيم قدرها لردع جماح النفوس المجبولة على فعل الشر عموما بما يكفّها عنه، ولذلك خاطب الله تعالى أصحاب العقول في قوله سبحانه: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[2]، فإذا علم الجاني أنه سيُفعل به مثل ما فعل بالمجني عليه قصاصا مماثلا، كف عن إقدامه على الجناية، فأمن المجتمع من شره، وحفظ نفسه من القود.

وبهذا يكون قد اتضح أن ثمرة الأمن هي إحدى ثمرات التوازن التشريعي التي يتحصل عليها المؤمنون بالله تعالى في الدنيا العاجلة.

٩. محبة الله تعالى:

لا شك أن من امتثل شرع الله الحنيف، ووطَّن نفسه على ميزانه القويم فإنه ينال أعظم ثمرة، وهي محبة الله تعالى له. وقد جاءت الكثير من الآيات القرآنية لتبشر هؤلاء المؤمنين بهذه الثمرة الغالية، فمن ذلك ما أخبر سبحانه عن محبته للمقسطين من عباده بقوله جل وعلا: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾[4]، كما أخبر تعالى عن

---

(١) الواحدي: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. مرجع سابق، (ج١، ص٦٢١، ٦٢٢).

(٢) سورة البقرة، الآية ١٧٩.

(٣) سورة المائدة، الآية ٤٢.

(٤) سورة الحجرات، الآية ٩.

محبته للمحسنين بقوله:﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1]، وأخبر سبحانه عن محبته للمتقين قائلا:﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾[2]، وقال:﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾[3]، وقال سبحانه مخبرا عن محبته للصابرين:﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ۚ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[4]، وبين تعالى محبته للذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص، بقوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾[5].

فهذه بعض الآيات التي تخبر عن محبة الله تعالى لمن لازم تشريعه الحنيف. وأما من مال عنه فتَجاوزه إلى غيره مما ورد النهى عنه، فإنه يفقد هذه الثمرة ويبوء بنقيضها، وقد جاءت الكثير من الآيات التي تدل على ذلك، ومنها ما أخبر الله به من عدم محبته للكافرين بقوله جل وعلا:﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[6]، وقال: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾[7]، كما أخبر الله تعالى عن عدم محبته للظالمين بقوله:﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[8]، وأخبر – أيضا – بعدم محبته لأهل الفساد بقوله تعالى:﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[9]، وبين

---

(1) سورة البقرة، الآية ١٩٥.
(2) سورة آل عمران، الآية ٧٦.
(3) سورة التوبة، الآية ٤.
(4) سورة آل عمران، الآية ١٤٦.
(5) سورة الصف، الآية ٤.
(6) سورة آل عمران، الآية ٣٢.
(7) سورة البقرة، الآية ٢٧٦.
(8) سورة آل عمران، الآية ٥٧.
(9) سورة القصص، الآية ٧٧.

سبحانه عدم محبته للمتجاوزين للحق بالزيادة في الاعتداء بقوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[1]، وورد في القرآن الكريم –أيضا– التصريح بعدم محبة الله تعالى للمسرفين المجاوزين للحدود، قال سبحانه:﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾[2]، وقال تعالى:﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾[3].

وبهذا يكون قد وضح من خلال ما سبق عرضه من الآيات، أن محبة الله تعالى ثمرة من ثمرات التوازن التشريعي لا ينالها إلا من استقام عليه، وأما من انحرف عنه بالكفر أو الظلم أو الفساد أو الاعتداء أو الإسراف أو نحو ذلك، فإنما ينال العكس من ذلك، وهو التصريح الواضح بعدم محبة الله تعالى له.

وهذه الثمرات التي تم ذكرها تعتبر من أبرز ثمرات التوازن التشريعي التي يحصل عليها المؤمنون في هذه الحياة الدنيا، وقد تم الاقتصار على ذكرها دون غيرها؛ لدخول غيرها فيها.

---

(1) سورة البقرة، الآية ١٩٠.

(2) سورة الأنعام، الآية ١٤١.

(3) سورة الأعراف، الآية ٣١.

المبحث الثالث

ثمرات التوازن التشريعي في الآخرة الآجلة

أولا: التثبيت بالقول الثابت:

لا تنقطع ثمرات التوازن التشريعي بانتهاء الدنيا، بل يستمر المؤمنون في جني قطافها من أول مراحل الآخرة، حيث يثبتهم الله تعالى على القول الثابت جزاءا وفاقا على ثباتهم على شرعه، قال سبحانه:﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]، فقوله تعالى: «﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾بلا إله إلا الله.﴿ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾، يعني يثبتهم على ذلك القول عند النزع.﴿ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾، يعني في القبر»[2].

ويؤيد هذا التأويل ما رواه الْبَرَاءِ بن عَازِبٍ-ﷺ- عن النبي-ﷺ- قال: "﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾، قال: نَزَلَتْ في عَذَابِ الْقَبْرِ، فَيُقَالُ له: من رَبُّكَ؟ فيقول: رَبِّيَ الله، ونبي مُحَمَّدٌ -ﷺ-، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عز وجل: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ "[3].

فالثبات على القول الثابت من أعظم الثمرات التي يتحصل عليها المؤمنون في الدنيا والآخرة، ولذلك فإنه لا تزل قدما عبد عن هذا التثبيت إلا إذا كانتا قد زلتا عن الثبات على الشرع الحنيف الذي أمر الله تعالى عباده أن يستقيموا عليه.

وعلى هذا «فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت...

فكلما كان- العبد- أثبت قولا وأحسن فعلا، كان أعظم تثبتا، قال تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ ﴾[4]، فأثبت الناس قلبا: أثبتهم قولا. والقول الثابت: هو القول الحق والصدق، وهو ضد القول الباطل الكذب، فالقول نوعان: ثابت

---

(1) سورة إبراهيم، الآية ٢٧.

(2) السمرقندي: بحر العلوم. (ج٢، ص٢٤٢)، وانظر: البغوي: معالم التنزيل. مرجعان سابقان، (ج٣، ص٣٣).

(3) أخرجه مسلم في صحيحه. مرجع سابق، (ج٤، ص٢٢٠١، حديث رقم: ٢٨٧١).

(4) سورة النساء، الآية ٦٦.

لـه حقيقة، وباطل لا حقيقة لـه. وأثبت القول: كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبت الله بها عباده في الدنيا والآخرة»[1].

فظهر أن من ثبت على ميزان الشرع، ثبته الله تعالى بالقول الحق الثابت الذي هو سبب نجاته وسعادته في الآخرة الآجلة ابتداء من مرحلة الموت.

ثانيا: تبشير الملائكة بالجنة والأمن من الخوف والحزن:

ينال المؤمن – أيضا– ثمرة غالية من ثمرات استقامته على التوازن التشريعي، تتمثل في تبشير الملائكة له بالجنة وتأمينه من الخوف والحزن منذ لحظات مفارقته للدنيا ومعالجته لسكرات مماته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[2].

قال الزمخشري في تفسيره: «﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عند الموت بالبشرى.

وقيل: البشرى في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وإذا قاموا من قبورهم. ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾، أن: بمعنى أي، أو مخففة من الثقيلة. وأصله: بأنه لا تخافوا، والهاء: ضمير الشأن. وفي قراءة ابن مسعود–ﷺ–﴿لا تَحْزَنُوا۟﴾، أي يقولون: لا تخافوا. والخوف: غمّ يلحق لتوقع المكروه. والحزن: غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضارّ، والمعنى: أنّ الله كتب لكم الأمن من كل غمّ فلن تذوقوه أبداً.

وقيل: لا تخافوا ما تقدمون عليه، ولا تحزنوا على ما خلفتم»[3].

ولا يخفى ما في اللفظ: (استقاموا) من دلالة واضحة على التوازن التشريعي، كما لا يخفى أن تنزل الملائكة بالبشارة بالأمن من الخوف والحزن في لحظات

---

(1) أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي: الأمثال في القرآن الكريم. تحقيق: إبراهيم محمد، مكتبة الصحابة، طنطا – مصر، ط١، ١٤٠٦هـ،(ج١، ص٤٢).

(2) سورة فصلت، الآية ٣٠، ٣١.

(3) الزمخشري: الكشاف. مرجع سابق، (ج٤، ص٢٠٤).

الاحتضار جاء ثمرة للاستقامة الدالة على ذلك.

ثم تأمل في الآية التالية، كيف تزرع الملائكة الطمأنينة في نفوس المؤمنين بعد أن بشروهم بالجنة والأمن وذهاب الحزن، قائلين لهم: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾[1].

قال ابن كثير: «أي تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياؤكم، أي قرناؤكم في الحياة الدنيا نسددكم، ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله. وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم»[2].

كما أن السنة الشريفة ليست ببعيدة عما أخبر به القرآن الكريم من تبشير الملائكة للقائمين بالقسط الذي أمر به الله ورسوله، بل بينت الصورة الجلية التي يُبشر بها المؤمنون في لحظات موتهم، والحفاوة البالغة في معالجة أراوحهم، والحالة النفسية المطمئنة التي تنعكس عليهم بسبب ذلك، وبالعكس من ذلك ما يحدث لمن كان معرضا عن القيام بالقسط، وبعيدا عن الصراط المستقيم، فقد جاء في ذلك عن النبي – ﷺ– أنه قال:" من أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ الله لِقَاءَهُ، قالت عَائِشَةُ أو بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: أنا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ. قال: ليس ذَاكِ. وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إذا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إليه مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ الله لِقَاءَهُ. وَإِنَّ الْكَافِرَ إذا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إليه مِمَّا أَمَامَهُ، فكره لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ الله لِقَاءَهُ ..."[3].

وجاء عن أبي هُرَيْرَةَ-ﷺ-عَنِ النبي-ﷺ- أنه قال: "إن الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فإذا كان الرَّجُلُ الصَّالِحُ قالوا: اخرجي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كانت في الْجَسَدِ الطَّيِّبِ. اخرجي حَمِيدَةً، وأبشري بِرَوْحٍ[4] وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، قال: فَلَا يَزَالُ يُقَالُ

---

(1) سورة فصلت، الآية ٣١.

(2) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. مرجع سابق، (ج٤، ص١٠٠).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ. مرجع سابق، (ج٥، ص٢٣٨٦، حديث رقم: ٦١٤٢).

(4) الروح – بفتح الراء–: الراحة. السيوطي، عبدالغني، فخر الحسن الدهلوي: شرح سنن ابن ماجه، الناشر: =

ذلك حتى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بها إلى السَّمَاءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لها. فَيُقَالُ: من هذا؟ فَيُقَالُ: فُلاَنٌ. فَيَقُولُونَ: مَرْحَباً بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كانت في الْجَسَدِ الطَّيِّبِ. ادخلي حَمِيدَةً وأبشري بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ. قال: فَلاَ يَزَالُ يُقَالُ لها حتى ينتهي بها إلى السَّمَاءِ التي فيها الله عز وجل. وإذا كان الرَّجُلُ السَّوْءُ، قالوا: اخرجي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كانت في الْجَسَدِ الْخَبِيثِ. اخرجي ذَمِيمَةً، وأبشري بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ، وَآخَرَ من شَكْلِهِ أَزْوَاجٍ. فَلاَ يَزَالُ حتى يخرج، ثُمَّ يُعْرَجَ بها إلى السَّمَاءِ فَيُسْتَفْتَحُ لها. فَيُقَالُ: من هذا؟ فَيُقَالُ: فُلاَنٌ. فَيُقَالُ: لاَ مَرْحَباً بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كانت في الْجَسَدِ الْخَبِيثِ. ارجعي ذَمِيمَةً، فإنه لاَ يُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ. فَتُرْسَلُ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَصِيرُ إلى الْقَبْرِ. فَيُجْلَسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، فَيُقَال له مِثْلُ ما قِيلَ له في الحديث الأَوَّلِ، وَيُجْلَسُ الرَّجُلُ السَّوْءُ، فَيُقَالُ له مِثْلُ ما قِيلَ في الحديث الأَوَّلِ"[1].

فعند التأمل في لفظي: (المؤمن) الذي يدل على التصديق، كما في الحديث الأول، و(الرجل الصالح) في الحديث الثاني الذي يدل على بعده من الفساد وملازمته للصواب، يتبين أن الرجل المؤمن أو الصالح هو من لازم التوازن التشريعي في حياته الدنيا، وهو الذي حصل على ثمرة تبشير الملائكة له عند الاحتضار.

ثالثا: الأمن يوم الفزع الأكبر:

يشير القرآن الكريم إلى ثمرة عظيمة من ثمرات التوازن التشريعي التي يظفر بها أهله يوم القيامة، تتمثل في الأمن يوم الفزع الأكبر، واستقبال الملائكة لهم لتهدئة روعهم وإزالة مخاوفهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[2].

= قديمي كتب خانة، كراتشي، طبعة بدون ترقيم، (د – ت)، (ص٢٦٩).

(1) أخرجه أحمد في مسنده: (ج٢، ص٣٦٤، حديث رقم: ٨٧٥٤)، وابن ماجه في سننه: (ج٢، ص١٤٢٣، حديث رقم: ٤٢٦٢)، والنسائي في السنن الكبرى: (ج٦، ص٤٤٣، حديث رقم: ١١٤٤٢)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح. مراجع سابقة، (ج١، ص٣٦٧، حديث رقم: ١٦٢٧)، [١٢].

(2) سورة الأنبياء، الآية ١٠١– ١٠٣.

فقد دلت الآية على أن هؤلاء الذين سبقت لهم من الله الحسنى، وهم أهل طاعته واستقامته الملازمين لشرعه، أنهم آمنون من الفزع الأكبر، سواء كان ذلك الفزع هو النفخة الآخرة التي يقوم بها الناس من قبورهم، كما قال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾[1]، ويدل على صحة هذا الوجه- أيضا- قوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ﴾[2]، أو قد يكون المقصود به إطباق النار على أهلها، أو ذبح الموت بين الجنة والنار، أو حين يؤمر بالعبد إلى النار[3].

وعلى كل الأحوال فهم آمنون فيها جميعا، وقد ورد في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تدل على الأمن من الفزع الأكبر، وعلى الأمن عموما في الآخرة، والذي هو ثمرة واضحة من ثمرات التوازن التشريعي الأخروية لكل القائمين على الحق والقسط الذي أمر الله به، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[4]، قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ الذي لا إله غيره، ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على تصديقهم بذلك فلم يخلطوه بشرك ولم يخالفوا الله في أمره ونهيه، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من فزع يوم القيامة وأهواله، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم»[5].

ومن الآيات الدالة كذلك، قوله جل وعلا: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي

---

(1) سورة النمل، الآية ٨٧.

(2) سورة الأنبياء، الآية ١٠٣.

(3) أنظر: ابن الجوزي: زاد المسير. (ج٥، ص٣٩٤)، والزمخشري: الكشاف. مرجعان سابقان، (ج٣، ص١٣٧)، وعلي بن سلطان محمد القاري: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح. تحقيق: جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، لبنان- بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، (ج٧، ص٣٦٥)، وأبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي: التبصرة. تحقيق: د.مصطفى عبد الواحد، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، مصر- لبنان، ط١،١٣٩٠هـ /١٩٧٠م، (ج٢/ص٢٤١).

(4) سورة الأحقاف، الآية ١٣.

(5) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج٢٦، ص١٤، ١٥).

ﭐلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾[1]، وقال سبحانه:﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[2].

قال الرازي: «...اعلم أن هذه الآيات دالة على أن من آمن بالله وعمل صالحاً، فإنهم بعد الحشر لا ينالهم خوف ولا حزن. ولهذا قال أهل التحقيق: إنهم يوم القيامة آمنون من الأهوال. وقال بعضهم: خوف العقاب زائل عنهم، أما خوف الجلال والهيبة فلا يزول الْبَتَّة عن العبد. ألا ترى أن الملائكة مع علو درجاتهم وكمال عصمتهم لا يزول الخوف عنهم، فقال تعالى:﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ﴾[3] »[4].

إن العبد كلما كان أكثر إخلاصا واستقامة على الشرع الحكيم، كان الأمان بالنسبة له أعظم، وقد دل على هذا قوله سبحانه:﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[5]، فتبين بهذا أن كل من الإيمان والعمل الصالح يشيران إلى التوازن التشريعي بوضوح كامل لما يتضمناه من دلالة واضحة عليه، فدلالة التصديق، والعمل بمقتضاه من غير ميل عنه ظاهرة في معنى الإيمان. والدلالة على موافقة الحق وامتناع الفساد والخطأ بأي حال من الأحوال هي ظاهرة في معنى العمل الصالح. وبالتالي كانت النتيجة التي ترتب عليها إيمان العبد وصلاحه في الحياة الدنيا هو حصوله على الثمرات الأخروية عموما، ومنها الأمن من الفزع الأكبر، والأمن من الحزن.

رابعا: الاحتفاء والتكريم:

يكرم الله تعالى من لازم شرعه الحنيف فلم ينحرف عنه بتكريم عظيم يوم القيامة، إذ يحشرهم إليه وفودا، قال سبحانه: ﴿ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴾[6]،

---

(1) سورة يونس، الآية ٦٢-٦٤.

(2) سورة الزخرف، الآية ٦٨، ٦٩.

(3) سورة النحل، الآية ٥٠.

(4) الرازي: التفسير الكبير. مرجع سابق، (ج٢٨، ص١٢).

(5) سورة الأنعام، الآية ٨٢.

(6) سورة مريم، الآية ٨٥.

قال الطبري في تأويل الآية: «يقول تعالى ذكره: يوم نجمع الذين اتقوا في الدنيا فخافوا عقابه فاجتنبوا لذلك معاصيه، وأدوا فرائضه إلى ربهم ﴿وَفْدًا﴾، يعني بالوفد: الركبان. يقال: وفدت على فلان: إذا قدمت عليه. وأوفد القوم وفدا على أميرهم: إذا بعثوا من قبلهم بعثا»[1].

وجاء في السنة الشريفة عن علي -ﷺ- في هذه الآية: "﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾، قال: لاَ والله ما على أَرْجُلِهِمْ يُحْشَرُونَ، وَلاَ يُحْشَرُ الْوَفْدُ على أَرْجِلِهِمْ، وَلَكِنْ بِنُوقٍ لم يَرَ الْخَلاَئِقُ مِثْلَهَا عليها رَحَائِلُ من ذَهَبٍ، فَيَرْكَبُونَ عليها حتى يَضْرِبُوا أَبْوَابَ الْجَنَّةِ"[2].

كما أنهم يكرمون بحسن استقبال الملائكة لهم من عند مبعثهم، حيث قال سبحانه: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[3]، قال أبو السعود: «﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، أي تستقبلهم مهنئين لهم ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ﴾ على إرادة القول، أي قائلين هذا اليوم يومكم ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ﴾ في الدنيا وتبشرون بما فيه من فنون المثوبات على الإيمان والطاعات. وهذا - كما ترى- صريح في أن المراد بالذين سبقت لهم الحسنى: كافة المؤمنين الموصوفين بالإيمان والأعمال الصالحة، لا من ذكر من المسيح وعزير والملائكة عليهم السلام خاصة كما قيل»[4].

ولا ينتهي التكريم بما سبق ذكره، بل يمنحهم الله تعالى مزايا عظيمة على كثير من العباد، منها ما أخبر به عبد اللَّهِ بن عَمْرٍو- رضي الله عنهما- قال: قال رسول اللَّهِ -ﷺ- "إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ على مَنَابِرَ من نُورٍ عن يَمِينِ الرحمن-عز وجل-، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ. الَّذِينَ يَعْدِلُونَ في حُكْمِهِمْ، وَأَهْلِيهِمْ، وما وَلُوا"[5].

---

(1) الطبري: جامع البيان. مرجع سابق، (ج١٦، ص١٢٦).

(2) أخرجه أحمد في مسنده: (ج١، ص١٥٥، حديث رقم: ١٣٣٢)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين. مرجعان سابقان، (ج٢، ص٤٠٩، حديث رقم: ٣٤٢٥)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(3) سورة الأنبياء، الآية ١٠٣.

(4) أبو السعود: إرشاد العقل السليم. (ج٦، ص٨٧، ٨٨).

(5) أخرجه مسلم في صحيحه. مرجع سابق، (ج٣، ص١٤٥٨، حديث رقم: ١٨٢٧).

ويكرمهم الله تعالى يوم القيامة، فيجعلهم شهداء على الناس ببلاغ أنبيائهم لهم، قال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1]، فقد جاء في الصحيح عن أبي سَعِيدٍ -رضي الله عنه- قال: قال رسول اللَّهِ -ﷺ-: "يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فيقول الله تَعَالَى: هل بَلَّغْتَ؟ فيقول: نعم أَيْ رَبِّ. فيقول لأُمَّتِهِ: هل بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لا. ما جَاءَنَا من نَبِيٍّ. فيقول لِنُوحٍ: من يَشْهَدُ لك؟ فيقول: مُحَمَّدٌ -ﷺ- وَأُمَّتُهُ. فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قد بَلَّغَ، وهو قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾، وَالْوَسَطُ: الْعَدْلُ"[2].

فقيام الأمة على الميزان الحق في الدنيا جعلها، شاهد عدل في الآخرة بموجب الميزان الذي بين يديها من وحي الله الصادق، وهذا تكريم عظيم لها من ربها تبارك وتعالى، وثمرة من ثمرات توازنها على شرعه الحكيم.

بل يكرم الله تعالى من توازن على شرعه في الدنيا فلم يحد عنه، أن يجعله تحت ظل عرشه -عز وجل- يوم القيامة، فلا يشعر بشدة الموقف الذي يشعر به عامة العباد، فعن أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- قال: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ الله في ظِلِّهِ يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا في اللَّهِ اجْتَمَعَا عليه وَتَفَرَّقَا عليه، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فقال: إني أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حتى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ"[3].

وهؤلاء السبعة الأصناف وإن اختلفوا في الأعمال التي استحقوا عليها الجزاء بأن يظلهم الله تحت ظل عرشه، إلا أنهم متفقون جميعا في أن الأعمال التي عملوها تمثل توازنا تشريعيا ظاهرا، فالعدل بين الناس توازن يمتنع معه الظلم، والنشوء في عبادة الله يقتضي امتثال الأمر واجتناب النهي والقيام على ذلك توازن بيّن، والرجل المعلق قلبه بالمساجد قد حرر قصده لله دون غيره، فلم يجعل في قلبه ميلا لأحد غير الله، فهو بهذا على ميزان دقيق لا يخرج عنه، وكذلك من اجتمعا على حب الله وتفرقا

---

(1) سورة البقرة، الآية ١٤٣.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج٣، ص١٢١٥، حديث رقم: ٣١٦١).

(3) المرجع نفسه. (ج١، ص٢٣٤، حديث رقم: ٦٢٩).

عليه، فإن المحبة في الله تعالى هي نقطة الالتقاء والتوسط بينهما، وهي نقطة الافتراق بينهما كذلك، فبمحبة الله كان الالتقاء والافتراق، وبعدمها ما كان يمكن أن يحصلا على ذلك الجزاء، فظهر التوازن وفق هذا التوجيه، – وأيضا– فإن الرجل الذي امتنع عن إجابة المرأة ذات الجمال والمنصب إلى الزنا، فإنه بذلك يكون قد استقام على أمر الله فلم يمل عنه، وهذا توازن واضح. وكذلك الحال فيمن أخفى صدقته أو ذكر الله خاليا، فإن توجيه القصد لله تعالى دون غيره يمثل أبلغ الاتزان، إذ لو مالا عن ذلك لوقعا في الشرك، ولنالا على ذلك العقاب بدلا من الثواب.

كما يبلغ تكريم الله تعالى لهم أن يميزهم عن غيرهم من الكافرين، قال سبحانه: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[1]، قال البيضاوي: «وبياض الوجه وسواده كنايتان عن ظهور بهجة السرور، وكآبة الخوف فيه. وقيل: يوسم أهل الحق ببياض الوجه، والصحيفة، وإشراق البشرة، وسعي النور بين يديه وبيمينه. وأهل الباطل بأضداد ذلك»[2].

وهكذا يتبين أن كل الثمرات الحاصلة للمؤمنين في الآخرة يرجع مردها إلى التوازن التشريعي الذي أمر الله به عباده أن يقيموه في حياتهم الدنيوية.

خامسا: اجتياز الصراط:

يقصد بـ«الصراط: الطريق المستقيم، قاله الراغب. وأيضا: يطلق على جسر جهنم. – و– هو على متن جهنم أدق من الشعر وأحد من السيف»[3].

وقد جعل الله تعالى لمن استقام عليه في الدنيا أن يجعل ثمرة تلك الاستقامة الثبات عليه في الآخرة، وأن يتجاوزه من غير زلل إلى الجنة. وأما من تنكب عنه

---

(1) سورة آل عمران، الآية ١٠٦– ١٠٧.

(2)البيضاوي: تفسيرالبضاوي. مرجع سابق، (ج٢، ص٧٧).

(3) محمد عميم الإحسان المجددي البركتي: قواعد الفقه. دار النشر: الصدف ببلشرز، كراتشي، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، (ج١، ص٣٤٨).

في الدنيا، فإنه يتنكب عنه في الآخرة ويهوي به إلى الجحيم، قال تعالى عن ذلك: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾[1]، قال الشنقيطي في تفسيره: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾: ذكر- جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن الذين لا يؤمنون بالآخرة لإنكارهم البعث والجزاء ناكبون عن الصراط، والمراد بالصراط الذي هم ناكبون عنه: الصراط المستقيم الموصل إلى الجنة المذكور في قوله قبله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ومن نكب عن هذا الصراط المستقيم دخل النار بلا شك»[2].

لقد مد الله تعالى الصراط المستقيم على متن جهنم ليعبر فوقه جميع العباد، وليجني أهل الاستقامة ثمرة العبور على متنه على قدر استقامتهم عليه في الدنيا، وتتحقق نجاتهم من خَطْف الكلاليب وشوك السعدان المبثوثة على جنبتي الصراط الأخروي بقدر توقِّيهم من الوقوع في المعاصي والسيئات التي نُهوا عن الوقوع فيها أو مقاربتها في الحياة الدنيا.

«... فمن استقام فى هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا، ومن عدل عن الاستقامة فى الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى تعثر فى أول قدم من الصراط وتردى ...»[3].

ولما كانت السنة مفصلة ومبينة للقرآن الكريم، فقد بينت أحوال العباد من أهل الاستقامة وغيرهم على متن صراط جهنم، ومن ذلك ما جاء عن أبي هريرة -ﷺ- عن النبي-ﷺ- "... وَيُضْرَبُ جِسْرُ جَهَنَّمَ، قال رسول اللَّهِ-ﷺ-: فَأَكُونُ أَوَّلَ من يُجِيزُ. وَدُعَاءُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ. وَبِهِ كَلالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، أَمَا رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟ قالوا: بَلَى يا رَسُولَ اللَّهِ. قال: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غير أنها لا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إلا الله. فَتَخْطَفُ الناس بِأَعْمَالِهِمْ، منهم الْمُوبَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ الْمُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو..."[4].

---

(1) سورة المؤمنون، الآية ٧٣، ٧٤.

(2) الشنقيطي: أضواء البيان. مرجع سابق، (ج٥، ص٣٤٤، ٣٤٥).

(3) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين. مرجع سابق، (ج٤، ص٥٢٤).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه. مرجع سابق، (ج٥، ص٢٤٠٣، حديث رقم: ٦٢٠٤).

وعن عبد اللَّهِ بن مَسْعُودٍ –ﷺ– قال: "يُوضَعُ الصِّرَاطُ على سَوَاءِ جَهَنَّمَ مِثْلَ حَدِّ السَّيْفِ الْمُرْهَفِ مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، عليه كَلالِيبٌ من نَارٍ يُخْتَطَفُ بها، فَمُمْسَكٌ يَهْوِي فيها وَمَصْرُوعٌ، وَمِنْهُمْ من يَمُرُّ كَالْبَرْقِ فَلا يَنْشَبُ ذَاكَ أَنْ يَنْجُوَ، ثُمَّ كَالرِّيحِ وَلا يَنْشَبُ ذَاكَ أَنْ يَنْجُوَ، ثُمَّ كَجَرْيِ الْفَرَسِ، ثُمَّ كَسَعْيِ الرَّجُلِ، ثُمَّ كَرَمَلِ الرَّجُلِ، ثُمَّ كَمَشْيِ الرَّجُلِ، حتى يَكُونَ آخِرَهُمْ إِنْسَانًا رَجُلٌ قد لَوَّحَتْهُ النَّارُ وَلَقِيَ فيها شَرًّا حتى يُدْخِلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ..."[1].

فظهر بما سبق أن الثبات على صراط الآخرة والنجاة من التردي منه، هي ثمرة عظيمة من ثمرات التوازن التشريعي التي يجنيها من لازم الصراط المستقيم في الدنيا فلم يحد عنه.

سادسا: النجاة من النار:

يخبر المولى تعالى أن من الثمرات التي يجنيها من اتقاه فلم يقع في الظلم والمعاصي، ولم يعدل عن ميزانه القويم أن يجني ثمرة ذلك في الآخرة، فينال النجاة من النار حين يَرِدْها العباد جميعا، كما قال سبحانه: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾[2]، ففي قوله تعالى: «﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ خطاب لجميع الناس عند الجمهور، فأما المؤمنون فيدخلونها ولكنها تخمد فلا تضرهم. فالورود على هذا بمعنى الدخول، كقوله: ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾[3]، ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾[4]، وقيل: الورود بمعنى القدوم عليها، كقوله: ﴿ وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾[5]، والمراد بذلك: جواز الصراط. وقيل: الخطاب للكفار

---

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: (ج٩، ص٢٠٣، حديث رقم: ٨٩٩٢)، وأورده الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، مرجعان سابقان، (ج٣، ص٢٣٥، حديث رقم: ٣٦٢٧)، وقال عنه: صحيح لغيره.

(2) سورة مريم، الآية ٧١، ٧٢.

(3) سورة الأنبياء، الآية ٩٨.

(4) سورة هود، الآية ٩٨.

(5) سورة القصص، الآية ٢٣.

فلا إشكال. ﴿حَتْمًا﴾: أي أمرا لا بد منه»[1].

والصواب أن ورود النار يشمل جميع العباد مسلمهم وكافرهم، وليس مختصا بالكفار وحدهم، سواء كان ذلك بدخولهم إياها وهي خامدة، أو بالمرور على الصراط المنصوب على ظهرها، وفي كلا الحالين فإن المتقين ينالوا من الله تعالى ثمرة النجاة منها، ويترك الذين ظلموا وتجاوزا أمره فيها جثيا. وقد جاء في الصحيح عن النبي-ﷺ- قال: "لا يَدْخُلُ النَّارَ إن شَاءَ الله من أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا. قالت- حفصة رضي الله عنها-: بَلَى يا رَسُولَ اللَّهِ. فَانْتَهَرَهَا. فقالت حَفْصَةُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فقال النبي -ﷺ-: قد قال الله -عز وجل-:﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾"[2].

وورد عن عبد اللَّهِ بن مَسْعُودٍ-رضي الله عنه-: "﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، قال: يَرِدُونَهَا ثُمَّ يَصْدُرُونَ بِأَعْمَالِهِمْ ..."[3].

إن النجاة من النار والبعد عنها في الآخرة طريقها امتثال الأمر واجتناب النهي، فمن فعل ذلك فقد أقام الميزان الذي أُمر بإقامته، وكان من أهل النجاة من النار في الآخرة، قال تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[4].

فالضمير في قوله:﴿عَنْهَا﴾راجع إلى النار.

«والظاهر من قوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ فما بعده: أن من سبقت له الحسنى لا يدخل النار»[5].

وفي الصحيح أن النبي -ﷺ- قال: "... ما من أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا الله وَأَنَّ

---

(1) الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل. (ج٣، ص٨)، وانظر: الصنعاني: تفسير القرآن. (ج٣/ص١٠، ١١)، والنحاس: معاني القرآن. مراجع سابقة، (ج٤، ص٣٤٧- ٣٤٩).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أُمُّ مُبَشِّرٍ. مرجع سابق، (ج٤، ص١٩٤٢، حديث رقم: ٢٤٩٦).

(3) أخرجه الترمذي في سننه: (ج٥، ص٣١٧، حديث رقم: ٣١٦٠)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين. مرجعان سابقان، (ج٤، ص٦٣٠، حديث رقم: ٨٧٤٣).

(4) سورة الأنبياء، الآية ١٠١.

(5) أبو حيان: تفسير البحر المحيط. مرجع سابق، (ج٦، ص٣١٦).

مُحَمَّدًا رسول اللَّهِ صِدْقًا من قَلْبِهِ، إلا حَرَّمَهُ الله على النَّارِ..." [1].

ولا شك أن الشهادة بصدق تُلزم المؤمن أن لا يحيد عن مقتضاها مما أمره الله تعالى به ورسوله -ﷺ-، فالصدق فيها أن يُخلص لله فلا يعدل عن توحيده فيُشرك معه غيره، وأن يسلك سبيله الذي شرعه له فلا يُصرف عنه بحال من الأحوال، وهذا توازن بيّن أشار إليه الحديث، ورتب عليه ثمرة النجاة من النار.

سابعا: دخول الجنة:

لقد جاءت في القرآن الكريم الآيات الكثيرة التي تبين الثمرة الكبرى التي يحصل عليها من استقام على ميزان الشرع الحنيف، والمتمثلة في دخول الجنة والتنعم بنعيمها يوم القيامة أو فَقْدها ودخول النار إن حدث التجاوز لميزان الشرع باتباع الهوى، ولعل قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [2]، يبين ترتب حصول هذه الثمرة على ملازمة التوازن التشريعي من عدمه، فقد بينت الآية أن فوات الجنة مرتب على طغيان العبد، وإيثاره الدنيا. وأن الحصول عليها مرتب على استقامته على ميزان الشرع المتمثل في خوفه مقام ربه، ونهيه للنفس عن الهوى.

إن هذا الاتزان البالغ الحساسية الذي يجعل من العبد قائما على وفق أمر الله ونهيه، هو الذي مكَّن هذا العبد من أن ينال أعلى درجات الجنة والخلود فيها، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [3].

ومما يدل على أن دخول الجنة إنما هو ثمرة لمن لازم ميزان الشرع ووطَّن نفسه عليه ما ورد عن أبي هُرَيْرَةَ -ﷺ- أنه قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: "من آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كان حَقًّا على اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ جَاهَدَ في

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه. (ج١، ص٥٩، حديث رقم: ١٢٨)، ومسلم في صحيحه. مرجعان سابقان، (ج١، ص٦١، حديث رقم: ٣٢).

(2) سورة النازعات، الآية ٣٧ -٤١.

(3) سورة الكهف، الآية ١٠٧، ١٠٨.

سَبِيلِ اللَّهِ أو جَلَسَ في أَرْضِهِ التي وُلِدَ فيها. فَقَالُوا: يا رَسُولَ اللَّهِ. أَفَلا نُبَشِّرُ الناس. قال: إِنَّ في الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا الله لِلْمُجَاهِدِينَ في سَبِيلِ اللَّهِ ما بين الدَّرَجَتَيْنِ كما بين السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فإذا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فإنه أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرحمن وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ..."[1].

ولكون الآيات كثيرة في الدلالة على أن دخول الجنة هي ثمرة للإيمان والأعمال الصالحة، فسيقتطف الباحث بعضا منها لبيان عظمة هذا النعيم الذي أعده الله تعالى للصالحين من عباده المؤمنين في الآخرة، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾[3]، وقوله جل وعلا: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾[4]، وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾[7]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه. (ج٣، ص١٠٢٨، حديث رقم: ٢٦٣٧).

(2) سورة العنكبوت، الآية ٥٨.

(3) سورة طه، الآية ٧٥، ٧٦.

(4) سورة المائدة، الآية ١١٩.

(5) سورة الحج، الآية ٢٣.

(6) سورة البقرة، الآية ٢٥.

(7) سورة يس، الآية ٥٥- ٥٨.

وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾[1]، ولعل من المناسب أن تُختم هذه الطائفة من الآيات بقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾[2].

ونعيم الجنة لا يمكن أن يتصوره عقل بشر، ويُكتفي في الإشارة إلى عظمته ما جاء في الصحيحين عن أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- عن رسول اللَّهِ -ﷺ- قال: قال الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: "أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ. قال أبو هُرَيْرَةَ-رضي الله عنه-: اقرؤوا إن شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[3] ..."[4].

وبهذا يكون قد اتضح أن الثمرات الأخروية التي يتحصل عليها أهل التقى والصلاح إنما يرجع تحصيلها إلى ملازمة التوازن التشريعي المتمثل في شرع الله الحنيف وهو دين الإسلام الذي يزن العبد المؤمن كل ما يصدر عنه بموجب ما جاء فيه من أمر ونهي، فيوطن نفسه وهواه على ذلك.

الخاتمة

---

(1) سورة الحجر، الآية ٤٥- ٤٨.

(2) سورة الأعراف، الآية ٤٤-٤٥.

(3) سورة السجدة، الآية ١٧.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه. (ج٤، ص١٧٩٤، حديث رقم: ٤٥٠١)، ومسلم في صحيحه. مرجعان سابقان، (ج٤، ص٢١٧٤، حديث رقم: ٢٨٢٤).